ديوان
الشعر
العربي
المعاصر

الأعمال الكاملة

للشاعر

سميح القاسم

٤

دار سعاد الصباح

السريـات

الجزء الرابع

رقم الإيداع : ١٩٨٨/١٩٩٣
I.S.B.N. 977—5344—71—9

يناير ١٩٩٣
جميع الحقوق محفوظة ©

دار سعاد الصباح
ص.ب : ٢٧٢٨٠
الصفاة ١٣١٣٣ – الكويت
القاهرة – ص.ب : ١٣ المقطم
٢٦٧ دق
تليفون : ٣٤٩١٧٢٧
٣٤٩٧٧٧٩
٧٠٩٥٨٣
فاكس : ٧٠٩٥٦٣
٥٠٦١٠٣٠

الاشراف الفنى : حلمى التونى

ديوان
الشعر
العربي
المعاصر

الأعمال الكاملة

للشاعر

سميح القاسم

السربيات

الجزء الرابع

دار سعاد الصباح

في هذا المجلد (الرابع):

[١] إرَم

إصدار نادي النهضة في أم الفحم

١٩٦٥ ــ مطبعة الاتحاد التعاونية ــ حيفا

[٢] اسكندرون، في رحلة الخارج ورحلة الداخل

١٩٧٠ ــ إصدار مطبعة وأوفست الحكيم ــ الناصرة

[٣] مراثي سميح القاسم

١٩٧٣ ــ إصدار منشورات دار الآداب ــ بيروت

[٤] إلهي، إلهي، لماذا قتلتني؟

١٩٧٤ ــ مطبعة الاتحاد التعاونية ــ حيفا

[٥] ثالث أكسيد الكربون

منشورات عَرَبسْك ــ حيفا

١٩٧٦ ــ مطبعة عتقي ــ حيفا

[٦] الصحراء

إصدار دار الأسوار ــ عكا

١٩٨٤ ــ مطبعة «أبو رحمون» ــ عكا

• تصدر هذه الطبعة عن « دار سعاد الصباح » - القاهرة - يناير ١٩٩٣

إِرَم

تبيين

في الأساطير أن شداد بن عاد عندما بسط سلطانه على الدنيا بأسرها حشد عباقرة المخططين، فنفذوا أمره بتشييد مدينة ذهبية جدرانها مطلية بالمسك والعنبر، ويحيط بها سور فضي مموه بالذهب، بحيث أصبحت غير مرئية من شدة وهج الضوء المنعكس عنها.

ونهضت المدينة، مؤلفة من مئة ألف قصر.. أعمدتها زبرجد وياقوت، تجري بينها أنهار حصاها من الجواهر، وعلى حافاتها أشجار جذوعها من الذهب، وأوراقها وثمارها من اللآلي. وأطلقت بينها شتى الطيور.. تصدح وتغرد..

غرق أهل هذه المدينة «إرم» في نعمة لا توصف واستهوتهم شتى ضروب الملذات فغاصوا في الرذائل، ويوم أرسل لهم الله من يعظهم لعلهم يرعوون، تنكروا لله وكفروا به، وواصلوا ضلالهم **(فصب عليهم ربك سوط عذاب)**وصاروا مثلاً وعبرة **(ألم ترَ كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد)**.

هذه هي «إرم» التي ورد ذكرها في الاساطير، وفي القرآن الكريم، والتي كتب عنها وألف حولها الكثيرون من الكتّاب والشّعراء... أما «إرم» التي أحلم بها وأكتب عنها فهي إرم جديدة.. إرم فاضلة.. تحلم بها الانسانية جمعاء.. وتناضل من أجلها.. مضحية في سبيلها الطويل الوعر بجسام التضحيات وغواليها.. مؤمنة بأنها البديل الوحيد وواثقة بأنها البديل الأكيد لعبودية البشرية، وفنائها الشامل.

المراحـــل

١) نشيد الافتتاح .... إرم الفاضلة
٢) نشيد الدهور .... البحث عن الجنة
٣) نشيد الكهنة .... الخطيئة والوثن
٤) نشيد الانبياء .... أبطال الرايـة
٥) نشيد الحرب .... هيروشـــيما
٦) نشيد الانسان الجديد .... بطاقات الى ميادين المعركة
٧) نشيد الختام .... الطريق

نشيد الافتتاح

البشرية : إرماً.. تريد القافلة؟!

الشاعر : إرماً.. على أرض جديدة

إرماً.. سعيدة

إرماً.. ولكن فاضلة!

البشرية : ماذا لديك؟!

الشاعر : لدي عن إرم قصيده!

البشرية : فلتسكتوا...

فلتسكتوا...

وليلق شاعرنا نشيده!!

نشيد الدهور

ـ عبثاً تحاول أن تنام!
قدر عليك السهد والفزع المدمر والظلام
فاهجر فراشك.. ألف صلٍّ في فراشك مستثار
ووسادك المحموم أشواك ونار!
سرب من الغربان في أعماقك الشوهاء حام
والليل حولك والعواصف والثلوج فلن تنام
عبثاً تحاول أن تنام
قدر عليك البؤس والألم المبرح والسقام
مأساتك السوداء كانت منذ قال الله: فليكن الوجود
وكان.. ثم بدا له أن يصنع الشمس اللعينة والحياة
فدارت الأجرام في الفلك المقيت ودبت الأحياء
في الآفاق سائبة يعيش ببعضها بعض.. وكنت

لتلتقي في روحك الموبوء آلام الخليقة والشقاء المر
من ندم يغلغل في كيانك كلما أوغلت
في تقليد ما سوًاك، بالعقل المعذب والهيام
بشهوة صفراء رائعة البداية مرة التاريخ
فاجعة الختام!
عبثاً تحاول أن تنام!!..
فاَحمل عظامك وآمضِ في الدرب الطويل
تحفُك الأخطار، جدِّد رحلة الأحزان
في أرض الضياع القاحل المشؤوم،
في بحر الأسى الطامي الذي لا يرحم السفن البريئة
تقطع الأبعاد.. بالقرصان والملاح
والأطفال والشيخ العجوز وغادة عذراء
حالمة بفارسها الجميل.. وزوجة فُضلى
وزانية وقديس وانسان يغامر
في سبيل الحق، يحدجه اللصوص
ويهمسون.. ويرسمون
خططاً يطل وراءها وجه يقهقه ساخراً:
عبث حياتكمو!.. جنون!!..

سل جدك المحدودب الأعمى
وسل أبويك، هدهما العذاب وقوَّست ظهريهما
عجلات شيء وأسمه الدهر
الذي لا ينتهي!
سل كل وجه أغبر القسمات يقذفه المدى
في وجهك المكدور.. لا لوثات مجدوب
تغطيه بأكداس الهناء السمج
والفرح المزيف والصفاء الأبلهِ!
سل كل انسان تحدَّر في كيانك ما تحدر
في كيانه من دم يغلي بنار الله، بالصحو
المصفى من سلوّ ضل عن وجه الحقيقة،
هل تغلَّب واستكان ضميره في الوحل
في الدوامة الحمقاء فاستعلى وأفلح
أن ينام؟!
عبثاً تحاول أن تنام!
فآحمل مصيرك وآمضِ في الليل المولول
عبر ندف الثلج عبر الرعب والريح المخيفة
والوحوش ونكبة الكون المتعتع في الظلام!

عبثاً تحاول أن تنامَ!
عبثاً تحاول أن تنام!!..
ـ منذا هنالك؟.. أي طيف في الطريق
الموحش الموحول منذا أنت يا شبحا
يقوم ويرتمي في كدرة الاسداف.. لا الأمطار
ترحمه ولا الأشواك والصخر المسنن والرياح؟
من أنت؟؟
ـ صنوك! ضارب في الأرض
ودَّعَ أهله قبل الصباح!
ومضى وفي أعماقه الكدراء ينزف
مثل ما في قلبك الدامي وروحك من جراح!
ـ من أنت؟؟
إنسان تغرَّب في طريق الرحلة الصفراء
يزحف نحو أقصى الدرب، نحو البقعة
السوداء في الأفق المشوَّه.. في المجال
المعتم المرهوب، غلفه السحاب!
ـ منـذا هنالك؟؟
ـ لعنة أخرى تلوب على المدى المجهول

مطفأة العيون، تدب في قلق مميت،
خانق الجدران، تسرح في جوانبه الجديبة
سائمات الظلمة النكراء، تنهشه الأفاعي والذئاب!
وتند عنه، جريحة الاصداء، عاثرة التمرد،
صرخة رعناء دامية،
تمزقها الأعاصير الغبية ثم يلقفها ويبلعها
المدى المطمور في الدم، في المزابل
في الخرائب، في الضباب!!
ربَّاه! أين الدرب؟!.. ثم يقهقه
اللادرب، يسخر من فظاظة طينة بلهاء
ينخرها وباء السل والسرطان
ثم تلفها الأوحال في صمت وهيمنة ملوثة،
وهزء ساحق الأثقال
جنَّده العذاب!
ويَوَدُّ لو يتوسد الطين المعفن كي ينام
فيضج في أسماعه المكدودة المضناة
صوت راعد: لا! لن تنام!!

نشيد الكهنــة

ـ دوري مع الاعصار! يا قطعانُ! ضيَّعك الرعاة!
وابكي ربيعاً مات.. مات!
وتهيأي للمسلخ المشؤوم تهدر فيه أمواج الدماء..
من القرون الخاليات!
من يوم أنشب آدم المغدور في حواء ناباً
يغتذي من لحمه المغبون ينهل من دماه!
ويظل يؤمن أن في صلب الخطيئة هادر
ينبوع أسرار الحياه!
ويهز صوت الله أركان الوجود:
ـ اليوم تفقد جنتي! فاْخرج يرافقك الشقاء
مدى رحيلك في يباب الأرض..
خلفك موصد عدني، وأمسك لن يعود!!

ـ دوري مع الأعصار! يا قطعان! ضيَّعك الرعاة!
وابكي ربيعاً مات.. مات!
من يوم شاء الله أن تهوي يدا قايين،
قاتلتين، غائصتين في الدم، في الحياه
ويروح يصرخ من وراء السدل..
في عسف الطغاة.. الأغبياء من الطغاه:
ـ قايين! يا قايين! أين مضت بهابيل خطاه؟!
إذهب! يرافقك الشقاء.. جزاء فعلتك الحرام!
قدر عليك السهد والألم المبرِّح والسقام
وتند عن أرض الخلود
صرخات بُقيا اللحم والدم والعظام!
الشلو أقسم لن ينام!
الشلو أقسم.. لن ينام!!..

ـ الرب (راع)!
ما زال يرمقه الملايين الرعاع
يتعبدون ويرفعون له الذبائح والقرابين البريئة،
يسجدون الليل.. حتى منتهاه

ـ ماذا وراء الصمت تكتم يا إله؟!
ويضج اعصار الحقيقة بين اغلال
تصفده بها الأوهام، غادرة الجموح، غبيَّة التيار
نادمة المصير!
ـ لا سر في صمت الاله!!
لا شيء غير الجوع والحرمان والطوفان،
يجتاح القرى السوداء.. يكتسح العبيد
الضاربين بلا وجوه، يحملون جبال صوَّان
على الأكتاف، داكنة النجيع
يحزُّ فيها النير مذ كانت وتنهشها الضباع!
والرب (راع)
ما زال يعبده الملايين الرعاع!..
والمؤمنون الآبقون، وجوههم للاَّت ترنو
في خنوع أبله، قطعانهم في الرمل تزحف
.. هاربين من الضياع الى الضياع!!

ـ الليل في النزع الأخير!
ونساؤكم يبكين في صمت مرير

يبكين في جوع وحرمان، يسوخ الطين
من زفراتهن البكم، يحترق الحصير
طالت سنون الجدب.. والأهرام تلتهم الرجال!
خوفو يموت.. فشيدوا قبراً يعيش به الزوال!
وتهيأوا للجوع، للأوباء، للقمل السعيد،
وللسياط، تئز خانقة بأيدي الثائرين على الفناء!
لا كانت الأطفال! حتى ينجب ابن الشمس
طفلاً لا يموت!
هبّوا فإن الليل في النزع الأخير!!

ـ يا نمل بابل إن في مولاكمو شوقاً
لاسرار السماء!
فتكدسوا قبل الصباح
ستشيّدون سبيل مولاكم لأبواب السماء
بيعوا حلى زوجاتكم
جُزّوا غدائرهن نجدلها حبالاً أو سياطا
أو مشانق للعصاة الأشقياء
واستسلموا للريح إن هدّت عرائشكم،

وقصَّفت الكروم الخضر..

إن الله يرزقكم غداً من عنده الخير الكثير!

وإذا استباح الداء آلافاً من الأطفال

فاستلقوا على أعتاب برجكم العتيد،

وعزّموا، تحمل نساؤكمو توائم..

إن ربكمو على كلٍّ قدير!!

نشيد الانبياء

ـ دعهم، فان ضلالهم قدر يرافقهم الى اليوم الأخير!
جالد إذا أفلحت، منتزعاً خطاك من الوحول الداميات
وعد الى فردوسك المهجور، للجنات تجري تحتها
الأنهار، للقصر الكبير
لليل (غوتاما)! وللإعصار (غوتاما)!
يؤول غداً بمشعلك المصير
ستظل في أوهامك البيضاء (نيرفانا)..
تظل رؤى مقدسة، إلهاً من أثير
والله! نحن نشاؤه بغرورنا،
شيئاً له قسماتنا الشوهاء ترسمه أنانياتنا..
فاَهبط من الأبراج، من شم القباب

وإذا استثير لهيبك القديس من صوت الضمير
وشقيت في ما يحمل الانسان من عبء العذاب
فالمس جراح الأرض في رفق..
ودثِّر عريها الدامي بأسمال التراب!!

ـ حطِّم وصاياك الشقيه!
وآسجد مع الكفار للعجل الغبي، فللسُّدى
تعطو أمانيك الغبيه
ألواحك الآجر تغري النمل والديدان
والابريز في العجل المدلل يخطف الأبصار
يقذف بالعقول الدكن في دوامة غضبى دجيّه!
آنستَ ناراً ضوَّأت سيناء! ثم سمعتَ!
قل.. ماذا سمعتَ؟ سمعتَ صوت الله
يا موسى.. فبشر في البريّه!
طوِّف قروناً تحت جنح الليل.. في شفتيك
يهدر صوت يهوه
والمشعل القديس في كفيك ترفعه،
تذود الدكنة الشوهاء عن كون مشوَّه

وغداة يسبك كل شعب ما لديه من الحراب
الى محاريث وترعى الشاة ما بين الذئاب
ماذا يكون؟؟ ستفتك الشاة الوديعة بالذئاب
وسيبعث الانسان ملحمة الصراع،
وآن تشتمّ المحاريث الدماء ستستحيل الى حراب!
ويزيح قايين القديم جميع أكداس التراب
يزيح قايين القديم جميع أكداس التراب!
فآرحم وصاياك الشقيّه!
حطِّم وصاياك الشقيّه!!

- شرفُ الأقانيم الثلاثة والصليب
شرفُ الدماء الزاكيات النازفات من الجراح،
جراح هيكلك الخضيب
شرفُ الأحبوا بعضكم بعضاً..
وهذا خبزكم جسدي وخمركمو دمي الجاري
وفي الناس المسره
والأرض يغمرها السلام.. فلا قتاد غاصبٌ
يودي بزهره

شرف المحبة والخلاص من الخطيئه
شرف التعاليم البريئه
لم يلهم الانسان معنى الخير..
لم يثنِ الغزاة الطامعين البله عن وهم الفتوح!
ورسولك القديس بطرس، عاد للعهد القديم..
فليس من تلميذك المعهود،
ليس سوى مِسوح
فأرحم جراحك يا مسيح!
ما عُدت في الانسان غير حكاية تحكى
عن الرب الجريح!!

أحِراءُ! هل هجرت حمامتك الوديعة؟
هل جفتك العنكبوت؟
أحِراءُ! هل دهمت قريشُ أمان لائذك الكريم؟
فراح تحت سنابك الكفار
مغدوراً يموت؟!
عادت (منى) وأبو لهبْ
عادا.. فما تبَّت وتبْ!

والكعبة استخذت منابرها للغو خوارج،
لا الله يكبح من جماح ضلالهم، لا الانبياء
ولا الكُتُبْ!
واستُشهد الأنصار.. وانهارت مدينتهم،
وشُرِّعت المساجد للصوص المارقين!
و«الله أكبر»! لكنة جوفاء،
تطلقها نفايات المسوخ التافهين!
فاركب بعيرك يا محمد!
وتعال.. لي في الشمس معبد!!.

ـ ما جئت بالتنزيل، لم يفجأك جبرائيل
في رهط الملائك بالنبوه!
لم تلق وجه الله! لم تسمع من النيران دعوه!
لم تحي أمواتاً ولم تُنهض كسيحاً!
لم تُزل برصاً ولم تخلق نبيذاً من مياه
لم تجيء بالمعجزات الخارقات
لكن وجهك يا رسول العصر أشرق في ظلام العصر..
أحلاماً، وايماناً وقوه!

وهدير صوتك هز أعماق الخليقة
فاستفاقت جذوة سُجنت بأعماق الحياة
فإذا الظلام يسيح في ذعر، ونور الفجر
يولد في العيون المطفآت
وإذا أنا الانسان! أجهر بالصلاة!
وإذا صغاري يشبعون، ويدرسون ويلعبون!
ومشيئة الرحمٰن والأقدار
بعض من نفايات القرون!
والأرض بعد العقم أثمار وأزهار وخضره
فأسمع أغاني الثائرين
وأشهد نهايات السجون
واهنأ فانًا بآسمك الجبار نجتاز المجره!
واهنأ فإن الشمس تشرق كل يوم ألف مره!!

نشيد الحرب

تَبْيَضُّ أجنحة الغراب!

وتلف أذناباً، من الخزي، الكلاب!

وتلوب في فزع وفي خجل، على أرض الرماد المر

أسرابُ الذباب

وتجف من رعب السؤال.. تجف حنجرة الجواب:

- من أي أعماق البشر

يتفجَّر الموت الزؤام على البشر؟!

ولأي كهف ينزوي الله المعفَّر بالغبار

وبالدخان وبالشرر؟

وبأي معراج يلوذ الأنبياء الصالحون

غداة تربدُّ الصور؟

بالحظ؟ بالمقسوم؟ بالمكتوب في لوح القدر؟!
طفل بلا رِجل، بلا عين، ومخلوق بلا وجه،
وأشباح من الأنس المشوه تستغيث
وتقهقه الاوباء والقحط الخبيث:
ـ كل الاناث هنا عواقر
كل الرجال هنا معقمة.. فألقوا العبء
عن أكتاف محراث مسافر!
هذا الرماد المر لم ينبت سوى الورد المحجًّر
والدمِ المسُوَدّ والريح المميتة والخناجر!
وتصك سمع الشمس همهمة المصانع
تحت وجه الارض حبلى بالذخائر
قلبي على العمال! خوف الجوع.. أيديهم تصوغ الخوف
.. من أجل الصغار.. أكفهم تختط موتاً للصغار!
قلبي على الانسان! في قلق الدمار
يسوق أحلام الخليقة للدمار!

وترف أجنحة الأعاصير الملوثة الحقوده
وتشرًع الأظفارُ والأنياب في وجه البراعم،

غضة الأشواق، في أحضان مشتلنا الجديد..
وتشتهي النيران خضرتنا الجديده!
وتصدِّع الآفاق جلجلة الملايين المدوية المريده:
ـ أيظل؟!
ـ لا.. لا.. لن يظل إلهنا!
ـ ونظل؟!
ـ لا.. يا طفلنا الموعود!.. لن نبقى عبيده!!
فوراء سور العصر خلَّفنا شعائره البليده!
ووراء سور العصر خلَّفنا كهوف الموت
موحشة معذبة.. وفتنا الليل والأسلاك
والأنقاض والقتلى ونصب المجد
في الارض البعيده!
واجتاز موكبنا مخاضات الدم الكبرى
الى شطآن... جنتنا السعيده!!

نشيد الانسان الجديد

الى بول روبسن

من أقصى أطراف الدنيا
ينهلُّ غناؤك في بيتي
ويرفرف في قلبي
عصفوراً.. أسمر.. منفيّا
من أقصى أطراف الدنيا
ينهلُّ غناؤك في بيتي
يا أقسى لافتة في الدربِ
يا فاضح جور الانسان على الانسان
من أقصى أطراف الدنيا

«بالله خذوا أمي للبيتِ»[1]
«كي لا تشهد موتي!»
وتهوّم في عينيا
أشباح الكو كلو كس كلان
يلهون بصلبك في الميدان
يلهون بصلبي في الميدان
وأفيق على ضربة طبلٍ
ويعود الى قلبي الايمان!!

الى فيدل كاسترو

قُدُماً.. قُدُماً.. في هذا الدربْ!
يا حاطم أغلال الشعبْ
قُدُماً.. يا أجمل شعله
في عتمة أمريكا المحتله
قُدُماً.. ما دامت في البيت
أشتات الأوباش الفاشست
قُدُماً.. ألفجر وقضبان السكر

أسلحة ليست تقهر
ياغوث الجزر المنهوبه
وعزاء الأم المنكوبه
راياتُ القرصان
ستغوص الى القيعان.. الى القيعان
شوهاء.. مخضبة.. مغلوبه
باسم الحرية والانسان؛
قُدُماً.. قُدُماً.. يا شعباً في كوبا
ما عاد مسيحاً مصلوبا!!

الى جان بول سارتر

أَطلقْها.. ناراً.. في وجه الأعداء
أَطلقها.. كِلْمتك الحمراء
ما دام على الدنيا باستيل
ما دامت قضبان.. وسياط.. ودماء
يا أنبل قنديل

في عتمة باريس العمياء
أَطلقها.. من أعمق أعماقِ الانسان
كِلْمَتَك المغروسة في وهران
في هافانا.. في هارلم.. في كل مكان
كلمتك المورقة الخضراء
أَطلقها!
ما زال على الدنيا باستيل!
ما زالت قضبان وسياط ودماء!
أَطلقها! أَطلقها!!
من قوس النصر المحمول
فوق رقاب الأحرار الشهداء!!

الى نجيب محفوظ

عاشوا.. لم تصحبهم كلمه
ماتوا.. لم تصحبهم كلمه
ألفصحى والأوراق المصقولة والانشاء

والحبر الغالي والأقلام الفضية
كانت مسبية
يلهو بمفاتنها النبلاء..
والناس البسطاء
عاشوا.. لم تصحبهم كلمه
ماتوا.. لم تصحبهم كلمه
فاغرف من أعماق البئر العذراء
واسقِ العامل والفران وأطفال الحاره
الناس ظمأء
أكتب عن شحذ الهمّه
وآكتب عن أحلام الأمه
طوبى للحرف الشامخ في الليل مناره
والعار لابراج العاج المنهاره
وسبايا النبلاء!!

الى كريستوف غبانيا

ما زال طويل الأظفار
ما زالت تقذف عيناه حمم النار
ما زالت تحميه دجيه
في قلب الادغال الأفريقيه
ما زال يزلزلنا.. حقداً.. لا رعبا
الوحش القاتل لومومبا
ودماء الكونغو ما زالت.. في كل طريق
وصلاة الكونغو ما زالت.. والليل عميق
فارفع شعلتك المشبوبه
وأضيء للأم المحبوبه
ألدرب طويل دون ضياء
والدرب قصير ما دامت
في الموكب رايتك الحمراء
فارفعها ولتخفق أبدا
في الدرب على جثث الشهداء!

الدرب قصير!

الدرب.. قصير!!

الى ثوار «فييتكونغ»

أَسْمَعُها.. تهدر.. ملء دمي
أَسْمَعُها! في الوديان، على الغابات، على القممِ
أسمعُ صرخات الأحرار، وقهقهة الرشاش
أسمع غارات الفاشست الأوباش
وأصيح.. أصيح.. بلا صوتِ:
«الموت لآلهة الموتِ»!!
واحس بكفي تتقلص
وأغيب لبرهه
وأحس كأني أتربص
بذئاب الغزو على أرض الجبهه
وأصب على الأشباح النار.. وأبكي!!:
«من يجرع في بارات نيويورك الوسكي؟»
«من يلقى في المقهى حلوه؟»

«من ينشد في الشارع غنوه؟»
«من يحرث في أمريكا؟ من يزرع؟»
«من يحرث في فيتنام ويزرع؟»
«من يبقى في المصنع؟»
من يبقى؟؟
يا آلهة الموت الحمقى في أمريكا..
يا آلهة الموت الحمقى!!
وتجلجل ملء دمي
في الوديان.. على الغابات.. على القممِ
غارات الفاشست الأشرار
وأصيح.. أصيح.. بملء فمي:
«ألموت لآلهة الموتِ!»
وصباحُ النصر يشع على أعينكم
يا ثوار «فيتكونغ» الأحرار!!

الى أوري ديفز

في كفي دفء من كفك!
في قلبي صوتك: «اني في صفك!»
في ذهني وجهك.. ذات لقاء
وهتافك: «اني معكم يا أخوتيَ الشرفاء»!
«معكم.. معكم.. في وجه الاعداء!»
في ذهني قامتك المنتصبة
وملامحك المكتئبة
وشعار النقمه
والخيمه
والشرطيُّ القاسي.. والسجن الأقسى
لا!.. لن أنسى!
ولقاؤك لي خلف الأسلاك
والبسمةُ.. تسكبها في قلبي شفتاك
وهتافك: «لا تحزن! لا تحزن! يا صاحب!»
و«أَحلفْ أن تحكي للناس هناك»
«أني سأواظب»

«سأواظب!»

لا.. لن أنسى!

يا جرح الأعداء الأقسى

يا جرح الأعداء

وصديق الشرفاء

قسماً بالجرح الواحد

في ماضي شعبينا الخالد

قسماً بالشمس

معاً.. سنفك من الأسر الدامي.. الشمسا!!

الى الأسطى سيد

يا أسطى سيد!

إبنِ.. وشيد

شيد لي السدّ العالي

شيد لك

أطفيء ظمأ الغيط الغالي

وامنحنا.. وامنح أهلك

كوباً من ماء
وخضاراً.. وزهوراً.. وضياء
يا أسطى سيد
أزف الموعد
والقرية في الصحراء العطشى تحلم
والبذرة في الثلم الصابر تحلم
فأدفن أشلاء القمقم
في أشلاء الصخر المتحطم
وابن.. وشيِّد
يا أسطى سيد
بأسم ضحايا الأهرام وبأسم الأطفالِ
إبنِ السد العالي!
يا صانع حلمِ الأجيالِ!!

الى محمد مهدي الجواهري

عفـــواً! يا عمـــلاق الـــكِـــلْمـــه
إن شـــابـــت ألـــفـــاظـــي عُجـــمـــه

عفواً فجراحي قاتلةٌ
والظلمةُ، تخنقني، الظلمه
عفواً! ان أقلقَ منفيا
منفيٌّ شاطَرَه همه
لهفان.. يمد اليك يدا
حمراء تلوح في العتمه
ويصيح: «صباح العزة يا نسراً سيعود الى القمه!»
يا حتف زبانية لصّوا
من أيدي الفقراء اللقمه
وانهارّوا عِهناً منفوشاً
في وحل الأحقاب الجهمه
في صوتك روعةُ تاريخٍ
وبيارقُ نصرٍ مُلتمسه
فاقذفه على البغي شُواظاً
واَسكُبْه ضياءً للأمه
أنا (جعفر) في أرض أخرى
يمتص فم الطاغي دمَّه

فاَعـذُر إن دوت كلمـــاتـــي

جشـاء، ممــزقــة الــرحــمـــه

أغــريــب وجـــهـــاً ولـــســانـــا

ويدا... لا يهـــدر بالـــنـــقـــمـــه؟!

نشيد الختـــام

أبداً على هذا الطريق !!
راياتنا بصر الضرير.. وصوتنا أمل الغريق
أبداً.. جحيم عدونا.. أبداً.. نعيم للصديق !
بضلوع موتانا نثير الخصب في الارض اليباب
بدمائنا نسقي جنيننا.. في التراب
ونرد حقلاً.. شاخ فيه الجذع.. في شرخ الشباب
ونصب في نبض المصانع..
للمربَّى.. والحقائب.. والثياب
نبض القلوب المؤمنات..
نبض القلوب المؤمنات.. بكل أقداس الحياة!!

ابدا.. على هذا الطريق!
نذوي فدى أشواق سنبلة على وعد العطاء!
ونصيح من فرح غزير الدمع.. في عرس الفداء:
أبداً.. على هذا الطريق!
شرفُ السواقي.. أنها تفنى فدى النهر العميق!!
والنهر يجري دافقاً.. يجري ويكتسح السدود
وآنظر الى الأفق البعيد.. أنظر الى الأفق البعيد
فهناك.. كانت ثورة كبرى.. وكانت بور سعيد
وهناك شيخ ميِّتٌ.. وهناك ميلاد جديد
وهناك.. ناس أصدقاء
صنعوا الحياة.. ونسَّقوا خضر الجنائن في الجليد
وهناك.. منجم أنبياء
جلدوا القياصرة الطغاة الأغبياء
وترمدوا.. لتعيش فوق رمادهم شعل الضياء!

وآنظر الى الأفق البعيد.. أنظر الى الأفق البعيد
فهناك.. في أعماق أفريقيا الجواري والعبيد
فجر.. يمر بكفِّه فوق الجباه الشاحبات

ويصب فيها النور والدم.. والحياة!

وهناك.. في أعماق أمريكا الجريمة والتمزق والضياع

طبل.. يدق بلا انقطاع

لمدينة تُشرى.. وزنجيّ يُباع!

وهناك.. في الأفق القريب.. هناك في الأفق البعيد

ليست تُتم الأرض دورتها بلا نصر جديد

فاَحمل لواءك.. واَمضِ.. في هذا الطريق..

أبداً.. على.. هذا.. الطريق!!

شرف السواقي.. أنها تفنى.. فدى النهر العميق!!

اســـكندرون
في رحلة الخارج ورحلة الداخل

يرحل بزوجته.. باحثاً عنها

﴿١﴾

متلثماً بالريح،
ملتفاً بخارطتي الرحيبه!
القي التحية،
كاظماً جرحي وحقد الغنغرينه
وأقول في ثقة لكل الأصدقاء
وأقول في ثقة لوالدتي الحزينه
خلّوا المحارم والبكاء
لطقوس عودتيَ القريبه
متلثماً بالريح،
ملتفاً بخارطتي الرحيبه!

(٢)

صمتي.. وبيداء تميد. ترق. تحملني. تموج
صمتي. وصاعقة تزلزلني
الى دهر العباءات الفصيحة والقباب
ـ أين البيارق والسروج؟
جهزتْ عمارتُنــا،
وبحر الروم يُضمر شـــرَّه
وتهرُّ آلاف الكلاب.

. . . .

صمتي وبيداء تموج
في حفلة الكوكتيل. والقبطان يغمزها فتأتي
ـ هل تأذنين برقصة؟
هل تشربين؟

من أين أنتِ؟

ويصيح تركي بدين:

ـ كل الذين عرفتهم ماتوا،

وآخر أصدقائي

ضبطوه مختلساً نقود البنك،

كان مقامراً وغْداً يموت على النساء!

ومهاجر ضاقت به البلجيك

كالاسفنج يشرب، وهو يجأر بالغناء:

«ناءٍ أنا، يا بنت، ناءِ!»

والجاز يصخب. آخ. يسقط. آخ. يحملني. يهيج

صمتي وبيداء تموج

ويلجّ بحّار عجوز

ـ من أين أنت؟ وما لديك؟

ـ أنا من بلاد الله. أبحث عنه في بلد غريب

ـ وإذا عثرت عليه؟

ـ أسرد قصتي.

ـ أصغي اليك!

ـ رافقتها طفلاً، لمدرسة السموم الطائفية
قبَّلتُها سراً،
ونمنا خلف سور العائلية
عاديَّة كانت،
وكنت زميلها في الكارثة
يوم اكتشفت سقوطها في ملجأ الأيتام. فجأة!
فعقدت ـ قبل الأربعين ـ قراننا
وبدون حب جارف..
في ملجأ الأيتام فجأة.
يوم اكتشفت سقوطها البحري،
والبري،
والجوي.. فجأة.
وسقطتْ مطعوناً،
ونجم سينمائي يداعب لحمها
ويبيح دفءه
في حفل إل. أس. دي وصودا كاويه
والمخرجون يقهقهون،
ويبسم الكومبارس في بلهٍ

فتسقط دمعتي جمراً على شفتي
وذقني كعب نعلٍ في التراب
. . . .
من قال، وجه مستعار يشتري شرفي
بمالٍ مستعار
من قال، يسقط الف باب
وتظل مائدة القمار
من قال، في لحمي تمد جذورها السوداء
مائدة القمار
من قال، توضع زوجتي رهناً،
وتأخذني الصحارى والبحار؟
ـ وغداة أدركك الصباح،
ماذا فعلت بما غنمت من المذلة والجراح؟
ـ زكَّيت أحزاني بأغنيةٍ وزهرة برتقال
ووقفتُ في ريح الشمال
عذباً كحد السيف، في ريح الشمال!
ـ ماذا تقول الأغنية؟
ـ بعنا ثمار الصيف يا حبي،

بأوراق الخريف
بعنا ربيعك.. بالخريف
بعنا شتاءك.. بالخريف
بعنا خريفك.. بالخريف
بعنا الوصية بالزكيبه
بعنا أغاني الحاصدين، بأم كلثوم العجيبه
بعنا صغارك بالسعال
والفقر والزهري. في أحضان عاهرة غريبه
فلنبك يا حبي دماً
ولنبك. آهٍ. كالنساء
مُلكاً مضاعاً،
لم نصن حرماته مثل الرجال!
ـ وسقطتَ؟
ـ انهضُ في المحال!

﴿٣﴾

قدمي تدق بلاط أوروبا
ووجهي في رمالك يا جزيره
ويداي في أشجارك العادت تنوّر يا جزائر
وفمي بلال في مآذنك العتيقة يا يمن
ودمي يسحّ على جدارك يا كنانه
ليطلَّ سنبلة تهجي درسها
لشهيد حقلٍ في عدن
ويشق صلصال العراق،
يشقه عن اقحوانه..
قدمي تدق بلاط أوروبا
وزادي.. ما تبقى
مني، أوزّعه وأشقى!

﴿٤﴾

أبواب اسطنبول تجهلني،
المواخير الكئيبة. والمآذن
وتشيح عن وجهي الوجوه الغارقة
في الشاي والحزن المداهن
وتميل عن دربي الصبايا
والمقاهي والمداخن
ويخونني حمّال أمتعتي
ويشتم سائق التكسي أبي
لم يعجب البقشيش حضرته،
فمال عليّ بياع حزين:
ـ اليوم شرَّف بيتنا الأسطول،
شرَّفنا الجنود الشقر

فالأسعار شيء آخر،
ما سعر زوجتك الفقيده؟
هأ. هأ. ههأ. ما سعرها،
أرغيف خبز.. أم قصيده؟
وأجوس أرصفة الشوارع
باحثاً عن وجه صاحب
أرتاح في ظل المساجد،
بين أقدام الأجانب
وأنام، من تعبي أنام،
على التمزق والحقائب..

. . . .

ـ هذا الفتى البدوي،
يسأل عن صديق باسم ناظم
عيناه من بوسفورنا
ويداه جذعا سروتين!
ويقول إن صديقه يأتي المدينة كل عام
متفقداً شوق الفصول الى المواسم
ـ لا علم لي، وعصي شرطتنا تلوّح في الظلام!

لا علم لي، يا أيها البدوي،

بالدم والعقيده

ما زال جلد الكبش بدلتيَ الوحيده!

. . . .

. . . .

انسان اسطنبول يجهلني،

ويجهل زوجتي!

﴿٥﴾

هذا أنا.. فعمي صباحاً يا أثينا

ومعي اليك تحية

من ابن رشد وابن سينا

لم يطلبا كتباً،

فقد سمعا تفاصيل المصيبه

واستنكرا تعذيب جالينوس

في «يورا» الرهيبه...

. . . .

هذا أنا.. فعمي صباحاً،

واغفري لي إن سألتك عن صديق

باسم ميكيس!

كسروا على كتفيَّ أرغولي،
فقلتُ أقوم أقصد صاحبي
فلعل ناياً عنده، لم يكسروه على جبينه!
ـ من أنت؟
من طول البكا عشيتْ عيوني يا غريب
وتمزقتْ رئتي
وقصّوا جبهتي رتباً
على أكتاف قواد المظليين والبوليس
أصحاب الفخامة واليخوت
وأنا معلقة على برج الكنيسةِ
آه. من شعري معلقة. أموت
من أنت؟
أبنائي ذباب في شراك العنكبوت
حزن وأوزو يومهم
والعام سرتاكي وحزن!
. . . .
ـ لم تعرفيني يا أثينا!
لم تعرفيني. فالوداع. الى غدٍ،

يا انتجونا!!

سقراط هذا العصر، يرفض كأسهُ

ويموت باسمٍ آخرٍ

في ساحة الاضراب،

في المنفى،

أو السجن الذي سيصير يوماً مدرسة!!

﴿٦﴾

برلين تعرفني،

وتذكر قامتي ودمي وصوتي

برلين تشهد انني

في ليل بوخنفالد، كنت شريكها

في ليل نكبتها بموتي.

فلتعطني يدها،

أُقبّلها. وأمنحها جبيني

وأقول: يا أختي التي خبرت عذابي

باركيني!

. . . .

برلين تعرفني،

وتعرف زوجتي،

وهموم بيتي!

﴿٧﴾

ليلاً.. أحج اليك يا حبي القديم
ليلاً.. بلا باقات أزهار،
بلا تحف ثمينه
يا جدتي،
يا جدة العرب الحزينه!
في حلة الافرنج، يا حبي القديم
أدلجت. لا كُتبي مشرَّعة على حد الأسنه
أدلجت. تثقل كاهلي المطعون محنه
والجرح رحماني الرحيم
يا زاد أجدادي، وزادي،
في الطريق الى النعيم..

شلت دمشق يديَّ، لكني شـفيت
يوم استرحت على يديكِ
حبيبتي.. يا قرطبه!
فقأتْ كنانةُ بؤبؤيّ
فرددت لي بصري مُعافىً عاشقاً
يا قرطبه!
ضيّعتُ في بغداد صوتي. ثم كان،
أنّـا التقينـا في شـوارعك الرؤى
يا قرطبه!
سلطانة الحزن المعرِّش ياسميناً
فوق أكتاف الزمان
كوني لنا.. يا قرطبه
كوني لهم.. يا قرطبه
لا بأس.. ما دامت جذورك
صيحةً في مهرجان!
ـ ردَّ الشباب إليّ،
أن أعطي مغني القافله
صوت القرون الحافله

زاداً على درب القرون الحافله،
لكنني بدّلتُ يا ولدي
أناشيدي
وألواني
وإِسم العائله!
ـ لا بأس، ما دامت جذورك
صيحة في مهرجان!
ـ ما خطبُ زوجتك الفقيده؟
هل بدلت صوتاً
وألواناً
واسم العائله؟
ـ حبي لها،
ولذا أُصدّرُ للنساء الاخريات
لحمي وأشعاري وأرغفتي
وأعواد الثقاب..
حبي لها!
ولذا، تربي قامتي ظفراً وناب
وتغيبُ في كل الجهات

وتعودُ من كل الجهات
ليكون ميلادٌ،
وتطلعَ عشبةٌ،
ويُشقّ باب!!

رحلة السراديب الوحشية

﴿١﴾

لم تمثُل الريح التي روضتها، بغبار طلْعي
غدرت بعاشقها الجميل
ألمحل غلته لهذا العام،
والصبر الطويل..
لم تمثل الريح التي روضتها، بغبار طلعي
وقشور أشجاري مشققة ككفي
والنسغ منذور لصيفِ
فلتبك زوجتيَ الحبيبه
ان زرتها في السجن،
محنياً على أزهار شمعٍ !

﴿٢﴾

لم تمثُل الريح التي روضتها من ألف عام
فتكاثروا.. وتكاثروا..
يا أمة الصلبان، يا سكان مملكة الخيام
نعم الوكيل، وكالة الغوث الكريمة،
والمطابع
عسلاً تدر،
على بريق الدفعة الأخرى من الأوطان،
كرتات الاعاشة!

(٣)

لم تمثُل الريح التي..
شكراً لكم. شكراً،
على هذي الصناديق المليئة بالدواء
والحزن. والسردين. والذل المقدد. والثياب
وأقول شكراً مرة أخرى،
إذا جدتم ببعض الأغطيه
فالبرد فاكهة الشتاء..
شكراً لكم
باسم البساتين الخطايا
باسم حزن الأوديه
باسم الشوارع والمدارس والمخازن

باسم المعاول والمقابر والموانىء
ومراكب الصيد التي نسيت كلام الأغنيه
شكراً لكم،
شكراً لكم،
من طحلب تمتد قامته،
لتصعد من ظلام الأقبيه!

﴿٤﴾

نضّد ملفات القرارات..
القديمة والجديده
خذ قلب خفاشٍ
وعيني بومــةٍ
وجناح قاذفةٍ
وسعلة طفلةٍ،
ستموت في سل الرئة،
وأكسر عليها بيضة العنقاء،
واَقذفها لقعر البئر..
تحترق الخيام

ويصير نسلك متعة للناظرين
وتدف أجنحة السلام
وتعود للبلد الأمين!

. . . .

أمحُ العناوين القديمة والجديده
أمح الاذاعة والجريده
وأكتب على الجدران، بالجير، الرواية والقصيده
وأرسم على الجدران،
خارطة
وعصفوراً
وزهره
وأحلم قبيل النوم مره
فيعود للأرض السلام
وتعود في الناس المسره!

. . . .

إنس القرابين القديمه
إنس القرابين الجديده
واذكر، قبيل الأكل، مرات ثلاثاً في النهار

كل التقارير المهينة من خطوط المعركه
والنوم في عزّ الحراسه
والسطو في عزّ الظهيره
والأخوة الجبناء، سراً،
والاراجيف الحقيره
وأذكر صغاراً يخمدون على نفايات الكناسه
وأذكر وجوه النائمين على غبار الأرصفه
والساهرين على محطات القطار
والمائلين على منصات السياسه
وأذكر سقوط أميرة الأزهار
في وضح النهار..
لتصير قربان الفصول القادمه..
في الليل.. منشقاً بسيف، صُك من نور ونار!

﴿٥﴾

في العالم السري، تختلف الطقوس
عن عالم النابالم، والأنباء عن قتلى المعارك
في العالم السري تختلف الطقوس
عن عالم الدم والهبوط على القمر
قبل الهبوط على الحقيقه
في العالم السري تنغلق الحديقه
ليصير دمعي أول الشوط الطويل الى الثمر
وتنال راحتها الجميلة في اللغات
قبل الرجوع الى السفر
في حقل ألغام الجهات
. . . .

من كل أطفال العواصم
والأقاليم البعيده
زوج... وكركرة رشيقه
من كل أزهار الحدائق والبراري والمياه
زوج... وأجنحة سعيده
تلهو بدون بطاقة رسميةٍ
من سلطةَ الأمن المريده
وتدف صاعدة، على شرفات أقواس القزح
لتنام في شَعر الاله
وتعود قبل الفجر،
حاملة زواويد الفرح
. . . .
من كل نوع. آه. زوجُ
آه. يا نبض الحياه
في العالم السري.. آه!!

﴿٦﴾

حلت صنوبرة ضفائرها، وظللت الجنود
العائدين من الحدود
شمس الظهيرة في بنادقهم وأتربة الخنادق
ـ الجو خانق!
ـ أبصرته متحفزاً،
أبصرت في كفيه موتي
جمدت يداي على حديد البندقيه
لم يطلق النار.. اقتربنا.. ازداد حجم السنديان
بادلته تبغاً بماء.
ماذا يقول الادعاء

في نص أنظمة الطوارىء والشؤون العسكرية؟
ـ لكنهم حمقى. برابرة. حفاه!
ـ الموت في بيتي،
وبين يديك يا أمي الحبيبه
أحلى لدي من الحياه
في جرح أرصفة غريبه!
. . . .
حلت صنوبرة ضفائرها وظللت الجنود
الميتين على الحدود
ـ في جيبه المثقوب عند القلب، صورة أسرته
ـ في جيبه قرط وآخر صورة لخطيبته
في أذنها اليسرى شقيق القرط، منتظراً شقيقه
ـ منديله. عنوانه. ورسالة من طفلته.
مبتلة بالدم، بين حروفها اشتعلت حريقه
ـ لم يبق غير ذراعه،
وحذائه المعجون بالدم والتراب
ـ لم يبق منه غير ابزيم الحزام.. ورتبته!
ويصيح بياع رمادي ضئيل

مستبشراً بالخبز، وهو يجدُّ في رفع العقيره
ليبيع سم ملاحق الصحف الحقيره
(عدد خصوصي مثير
قتلى بلا عدد. وأسرار مثيره
أنباء معركة أخيره
من قلب خط النار..)
ـ من قلب الجنون على الشفير!!

. . . .

حلت ضفيرتها على النعش المجلل بالسؤال:
من قال، يحمل في حقيبته الصباح
صوتاً.. لساحات المدارس
فيعود محمولاً على كتف المساء
ذكرى لساحات القتال
وبطاقة مطبوعة.. من قائد الاركان
تحمل للقتيل وسام فارس!

. . . .

(في سالف الأزمان،
كان الورد مرسال الحبيب

لحبيبه.. ولكل زهره
معنى: تراك تحبني؟
غيران!
يا حبي اذكريني!
في حاضر الأزمان،
صارت كلها.. كل الورود
صيحات حزن فوق تابوتٍ،
يغلّ فتى وفكره..)
. . . .
(لا. لا تموتوا
يا شيوخ مدينتي. لا. لا تموتوا
فالورد لا يكفي لغير الميتين على الحدود..)
. . . .
(يا موت! كيف أتيتها؟
يا موت! كيف عرفتها؟
يا موت!
هل أعطتك وصف طريقها هذي البيوتُ؟!)
. . . .

حلت ضفيرتها عليه
وبكت.. وكان بكاؤها
يأتي ويصعد غارقاً في الدم، من كل الجهات
فالحزن تعرف سره وطريقه كل اللغات..

﴿٧﴾

مستلقياً في النهر،
مغموراً بأحزان الطحالب
أو مائلاً في غمرة البيداء،
مدغوماً بأعمدة الرمال الغاضبة
أو واقفاً في الريح،
مشحوناً بأجيال تحارب
اسكندرون يتم سمفونيته
اسكندرون يفك انسانيته
من برجك المرصود، يا أرض الشموس الغاربه!

. . . .

باسم الهواء الطلق

والحب المغمس بالتراب

باسم ارتطام الفجر بالسكك النقية والمعاول

باسم الشواهد والسنابل

باسم الاغاني. الياسمين.

الضحك في فيء المنازل

وشقائق النعمان.

والزيتون.

والقصب الملوَّح في الضفاف

باسم الحنين الى الطفوله

باسم الحنين الى الشباب

باسم الجنازة والزفاف

اسكندرون يريد زوجتهُ،

ويحلم بالسلام..

مراثي سميح القاسم

﴿ب﴾

من قمّت جبل الجرمق. أعلى جبلٍ في وطن الأسماء
صار كلام الرب إليَّ أنا المنبوذ سميح القاسم
قال الرب إلهي استجمعْ أحزانك والمطر القادم
واَستجمع موتى قومك والمرضى والأحياء
وليُصغ ِ إليَّ الأخضرُ واليابس
قال الرب إلهي تأتي أيام يتخثّر فيها صوتك
ودموعك فيها تتخثّر
ودماؤك تجري فيها قنواتٍ قنواتٍ حفرتها كفَّاك
تأتي أيامُ تنكرها الشمس فتنكرك الأيام

يا من تعمل في عينيَّ الشر وتقهر في عينيَّ الأيتام
يا من ملأتْ أوديتَ الشرق خطاياك

«مضى فرح قلبنا، صار رقصُنا نوحاً سقط إكليل رأسنا،
ويل لنا لأننا قد أخطأنا»

من قعر البحر الميِّت ناديت الرب إلهي ناديت
في بيتك يا ربَّ الجند أقمتَ مذابح للبعل
واكتنفتني في بيتي يا رب الجند حبال الموت
وأصابتني شِدَّتُ هاويتي كابدتُ الويل
قرَّبتُ جميع قرابيني أعطيتك يا رب الجند خيولي
وشياهي وحديقت بيتي
لم أعطك أزهار البريَّت، أزهار البريَّت ملكك،
لا أعطي ما لا أملك.
أعطيتُك أطفالي فلماذا تقصم باللعنت صُلبي
أعطيتُك يا ربي الرطب الحشف الزيت الزيتون
الحطب الحنطة.. مُرني ماذا يرضيك
مُرني يا ربَّ الجند لأُعطيك!

(ل)

هو العار حتى الضحى
أو هو النوم حتى الجريمه
على أي حالٍ تظل الخرائط وهماً تظل الوثائق
وهماً ووهماً تظل الأغاني القديمه
تناسل إذن يا كلام الجرائد
تناسل إذن يا ذباب المقاعد
شممتُ تراب بلادي فأكَّد أني ورثتُ كما ينبغي
رئةً عن رئهْ
ولما أخذتُ ربابة جدّي وأنشدتُ هذي

الشروقيَّة البكر صاحت ربابة جدّي:
يدا عازفي مئة بالمئه.
ولكنَّ صوتاً جديداً يغرغر بالدمِّ صوتاً
جديداً، فأين؟
وقلتُ اهدئي واقبلي،
يتشهَّى الشهادة من آمنوا وأماطوا اللثام
فلا الليل ليلٌ ولا العين عين!
هو العار حتى الضحى
أو هو النوم حتى الجريمه
فيا أهل هذا الحمى المتوتر كالقبضة اليائسه
أعيروا الغريب قميصاً ليستر عورته ريثما..
(تقمَّص بالأمس نهراً فجاءَت خيول مجنَّحةٌ
شربتْ نهره، فاكتوى ساغباً لاغباً واكتوى
تقمَّص مئذنةً. ثم جاءَت نسور الخرافةِ
فانهارت المئذنه
تقمَّص زيتونةً غير أنَّ الرياح)
وما راح راح
فماذا يجيء غداً يا طبيب العيون؟

فماذا يجيء غداً؟

فماذا يجيء

«وجـاء أخـوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ـ ولما جهّزهم بجهازهم قال أتوني بأخ لكم من ابيكم، الا ترون أني أوفي الكيل، وأنا خير المنزلين ـ فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون»

فان لم...

فلا كيل...

﴿١﴾

لام نون

وضراعة روحي، عمّادي في الحمأ المسنون

والكفن الطالع من جلدي

والتابوت الطالع من جسد الزيتون

والأسلاف الموتى الأحياء الموتى

والأحفاد الآتون

حمَّلَني أهلي دمهم حمَّلت لساني دمهم

صاحوا من حنجرتي المذبوحه

قالوا يا من ملكك في الشرق وفي الغرب وما بينهما

قالوا شرَّعنا الأبواب ليدخل عابر دربك
قالوا آمنَّا من شدة حبّك
وكفرنا من شدة حبّك

«قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا
فهل الى خروج من سبيل؟»

إجعل دهر الغضب قصيراً
واجعل دهر الحزن قصيراً والغربه
يا سيد قلبي. طهَّرتَ ضميري في نارك
وضميري في روحي. روحي طاهرةٌ في نورك
روحي في جسدي. لا تقتل جسدي
إثمي أكبر منه وعقابك أكبر..

﴿د﴾

أردتَ فسمعاً وطاعه
أردتَ فمالت مع الريح أشجارنا العاليه
ولم نتخطَّ حدود العذابِ قروناً
ولم نشتبهْ بالمشيئةِ

لم ندَّخِر ميتةً في القَناعه
وسمعاً وطاعه
حملنا سلاسل أسيادنا وشكرنا
تناحر فينا الغزاةُ استباحوا هوان منازلنا،

وشكرنا

عَصرنا جماجمنا في التراب، اندغمنا، اندثرنا،

وعُدنا سنابل بعض السنابل

ليأمن سادنك الكهل شرَّ الغوائل

وجُعنا كثيراً عرينا كثيراً ومتنا كثيراً

ولكن.. شكرنا.

أردتَ.. فماذا تريد؟

«ونحن نقطع خشباً من لبنان حسب كل احتياجك، ونأتي به اليك أرماثاً على البحر الى يافا، وأنت تُصعده الى يروشلايم. وعد سليمان جميع الرجال الاجنبيين الذين في أرض اسرائيل بعد العد الذي عدهم أياه داوود أبوه، فوجدوا مئة وثلاثة وخمسين ألفاً وست مئة. فجعل منهم سبعين ألف حمّال وثمانين ألف حطّاب على الجبل وثلاثة آلاف وست مئة وكلاء لتشغيل الشعب..»

أردتَ. فماذا تريد؟

أما من مزيد. أما ـ من ـ مزيد؟!

«ـ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله، فمنكم من يبخل، ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه، والله الغني وأنتم الفقراء، وأن تتولوا يستبدل قوماً غيركم، ثم لا يكونوا أمثالكم»

وهل... من... مزيد؟

﴿ي﴾

كانت طالعةً من بريَّة هذا الشرق

كانت ضامرةَ القامة نافرةً وجميله

حلمتْ بي وبها يا ناس حلمت

حملتْ بي يا رب ومني حملتْ

أَنجبنا وأَنجبنا

هل كانتْ أُماً يا ربي، أم كنتُ غمامه؟

عاقبْ نوحاً يا سيِّد نعمته يا مولاي

كان يعاقر خمرته في أندية الليل وكنا في الطوفان

والموت سلامه

ماتت سيدتي وجميلة عمري لكني لم أهنأ بالموت
فانظرني واسمعني يا بارىء هذا الصوت
ها أنذا أبكي زنبقة السهل المشهودة بين صبايا الأرض
ها أنذا أندب حظي العاثر في دالية العُمر
جُعَلاً مقلوباً أو عاصفةً
ها أنذا أطرق أبواب الأمم المتحده
(أو غير المتحده)
ها أنذا أتقلَّص في برد الساحات المهجوره
ها أنذا أمتد على كل جهات المعموره
وجهي مركبة فضاءٍ تنكرها الكرة الأرضيّه
قلبي الرمَّانةُ قنبلةٌ ذريَّه
وذراعي أسطوره
وخطاي قضيَّه!
ها أنذا أسأل رعيان السفح القاتم
هل شاهدتم يا ناس
في أيّ طريقٍ سار حبيبي المظلوم الظالم
دلِّيني يا عصفوره
أعطوني أيديكم يا أبناء الحنطة والتكنولوجيا

يا طلاب الجامعة العمال الفلاحون الجند الشعراء
هاتوا أيديكم.. ها أنذا أغرق
هاتوا.. ها أنذا أتمزَّق
أيديكم..
ها أنذا..!
لم أطلبُ غير كفاف اليومِ وظلّ الشجر وسقف البيت
لم أطلب أكثر من عدل الطقس وحكمة محراثي والاثلام
هل كان كثيراً يا ربَّ جهات الأرض وربي
أن أطلب شيئاً من مائدتك
شيئاً من فضلة مائدتك
ليتاماي، يتامى شعبي
هل كان كثيراً.. يا ربي!
ها هو قد وقع الظل على الظل اندرزتْ أضغاث الأحلام
اشتعلتْ منديلاً بين أصابع أمي
أمي ضائعةٌ في كل موانيء ملكوتك
لاطمة ثدييها، تبكي وتلوِّح وتنادي
لكن، من يسمع، من يسمع، مَنْ؟
كانت عاصفة من لدني

وعواصف كانت من لدنك
هلعتْ وانتُهكت سعفات النخلة عنقود النخلة جذع النخله
أبكي، يا رب الجند القاضي والشاهد، أم أشكرُ
ما دامت بعض جذور النخلة سراً من أسرار الطين..

«اسمعوا يا جميع الشعوب وانظروا الى حزني. عذاراي وشبابي ذهبوا الى السبي. ناديت محبّي. هم خدعوني. كهنتي وشيوخي في المدينة ماتوا إذ طلبوا لذواتهم طعاماً ليردوا أنفسهم».

لكن.. من يسمع؟
على سطح بيتي وقفت صغيراً على صلعة الكون والفاتحين
يداي، وطائرةٌ من ورق
رأيتُ زوارق أهلي رأيتُ الشّبّاك رأيتُ الغرق
صرختُ ولم يسمعوني استجرتُ ولم ينجدوني
صغيراً على سطح بيتي
يداي.. وطائرةٌ من ورق
ضحكتُ، وكان على الأفق ظلُّ الفراشه
ذُهلتُ، وصار على الأفق شكل الغراب
فزعت وصارت على الأفق طائرة.. طائره!

وصار الهدير يخيطُ الى البحر لحم الشفق
ومن سطح بيتي هربتُ صغيراً
تركت على الباب طائرةً من ورق
تركتُ على الرمل محفظة الكتب المدرسيّه
وفي الماء أغنية بعضها صوت حورية البحر،
والبعض عن سمك القرش واللغة الأجنبيّه
ولم يسمعوني
ولم ينجدوني

«كيف جلست وحدها المدينة الكثيرة الشعب. كيف صارت كأرملة العظيمة في الأمم. السيدة في البلدان صارت تحت الجزية. تبكي في الليل بكاء دموعها على خديها. ليس لها معزّ من كل محبّيها. كل أصحابها غدروا بها. صاروا لها أعداء».

على سطح «لاهاي» ناديت لم يسمعوني ولم يفهموني ولم..
ترجَّلتُ. جاست خطاي الثقيلة سطح الكُره
ومارس جسمي جميع طقوس المجاعة والمجزره
ويا ربّ! ها أنذا تحت وجهك. جسمي يجوب
المنافي جميع المنافي ولكن على سطح بيتي ظَلَّتْ

سنونوّةُ الحب والخصب والذكريات
وظلت دمائي على سطح لاهاي والكلمة القاتله
وصارت يداي على سطح بيروت صارت بشكل الصليب يداي

❋

ها أنذا، يا نافخ الأرواح
في جثث البذار
ها أنذا، وحدي على الأسوار
مئذنةً مهجورةً
نبتاً جحيمياً بلا ثمار
نفختُ في بوقي
ولا غير الصدى في نشرة الأخبار

«قوموا اصعدوا الى أمة مطمئنة ساكنة آمنة، يقول الرب، لا مصاريع ولا عوارض لها، تسكن وحدها وتكون جِمالهم نهباً، و كثرة ماشيتهم غنيمة...»

وحدي على الأسوار

عذَّبني حبي

غرَّبني شعبي ولا شعبي

وأغلقتْ بنادق الغزاة

نوافذي.

وأطفأتْ حبيبتي من خوفها الأنوار

«آه يا سيف الرب حتى متى لا تستريح. انضم الى غمدك، اهدأ واسكن...».

مات وحيد القرن. يا من تخلق العالم أزواجا،

وجسمي قرنه الوحيد

ويشحذ الغزاةُ فوق جسدي حرابهم

ويصبغون في دمي ثيابهم

فما الذي أفعلهُ بصوتك الوعيد؟

«إن الذين كفروا سواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم، لا يؤمنون».

حزناً حزنتُ، وبكاءً يا أبي بكيت

ولم تزل منازلي المهجوره

مغائراً وحشيةً

ولغتي المقهوره

زوبعة للطلع والصيحة والرطوبه
ولم أزل محتضراً
ولم أزل منتظراً، في خدمة الولائم
وغارقاً وعائم
أهز لو أهز من سباتها المعموره:
بالصوت
يا سامعين الصوت
آن لهذا الفارس الصغير
أن يترجَّل
عن جواد الموت!

«ارتخت دمشق والتفتت للهرب. أمسكتها الرعدة وأخذها الضيق والأوجاع كماخض. كيف لم تترك المدينة الشهيرة قرية فرحي. لذلك تسقط شبانها في شوارعها وتهلك كل رجال الحرب في ذلك اليوم، يقول رب الجنود، وأشعل ناراً في سور دمشق...».

وفوق مسام الحشائش أم فوق أجنحة الطائرات
يكون همود العواصف، رأد الضحى أم مساءً يكون

ويوم تحل ضفائرها السود، أختي، بماذا
أناديك يا سيد الجسد الهشّ والمهجة الظامئه؟
بماذا أناديك يا واهب الملك من ليس يملك
ويا جاعل الماء والنار ميزان عدلك
بماذا أصون ملامح أرض الرمادِ
بماذا ألمّ رماد بلادي
وكيف ألُمّ رمادي؟
تباركتَ، تعطي وتأخذ، مستبدلاً بالقليل الكثير
ومستبدلاً بالكثير القليل
ولكنَّ عبدك هذا المقيم على طللٍ دارسٍ
يشتهي زهرةً زهرةً واحده
فمن أي جيلٍ.. إلى أي جيل؟

«مصــرِ عجلة حسنــة جداً، الهــلاك من الشمــال جاء جاء، أيضــاً مستــأجـروها في وسطها، كعجول صغيرة. لانهم هم أيضاً يرتدون يهربون معاً.... قد أخزيت بنت مصر ودفعت ليد شعب الشمــال..».

وها أنذا في جميع الجهات
أضمِّد جرحي بفضلة ثوبي وأوراق أشجارك القاتمه

وأغسل أدران جسمي وروحي بدمعي ونارك
وأرقبُ نعمتك القادمه
فبارك شهيد غرامك بارك ضحيَّة عدلك
يا ربّ بارك!!

وقال في رثاء الطفولة..

دماً أبكيك. وأضحكك دماً. أيتها الطفوله
وتمثالاً لك في مدخل الموت صار جسدي
يا منبوذة كالصدأ على أهلّة المساجد
يا مبتورة كقطعة الجبنة
سماً أنضحك من مسام جسدي الحجري
يا طفولة الأحزان المتحفزة
قطيعاً من القطط البرية الجائعة.
فوق بحر الزيتون وجزيرة الشغف الآدمي
وقفتُ هنيهةً بين البدء والختام
أطلقت صيحة حادّة على جبل حيدر
قلَّدتُ معلم الدين

وشتمت معلم الحساب وقواعد اللغة
على جبل حيدر
(لو أنك تعرفين جغرافيتي يا أكداس الكتب!)
في طفولتي ذات الشاربين المعقوفين كالعقرب
والعضلات المفتولة بلا اكتراث
أحببتُ نشيداً حماسياً معرَّباً
وحين تعمشقتُ على التينة الذليلة
ضربتني أمي وهي تنتحب:
ستراك طيارة اليهود يا مقصوف العمر!
في طفولتي كان جدي أعظم رجل في العالم
على مائدته ثلاثة كتب سماوية
يتحدث بكلمات صعبة وصوت جهوري
ويستشهد بالأقوال المأثورة
في الشتاء يصير جدي أضخم وأجمل وأغنى
وحين تزوره الحكومة
يدعو لصاحب الجلالة بطول العمر
ويقدم لها فنجان قهوة سادة

ثم يقدمني فخوراً، لأغني بالانجليزية:

MARY HAD A LITTLE LAMB
LITTLE LAMB
LITTLE LAMB

في طفولتي اشترت لي أمي قبعة
فأصبحت بحاراً انجليزياً
واشترى لي أبي قميصاً
فأصبحت أحد رجال الكيبوتس
وغنيت للحاكم العسكري (بالعبرية طبعاً):
גשם בא
גשם בא
גשם גשם גשם בא
وشدَّت جدتي شعرها
وهي تترحم على أيام سفر برلك.
أبكيك دماً يا طفولتي
يا ملعونة في الطفولات
يا ملعونة الى دهر الداهرين. آمين.
لماذا لم تملكي علماً وجيشاً
ونشيداً حماسياً غير معرَّب؟!

وقال في رثاء الطريق...

وها أنذا، أولاً وأخيراً،
موزَّع بين التفاحة والحجر
قالت التفاحة:
لتكن مشيئتي ليأت ملكوتي
لأنني اللدونة والغبطة .
والثمرة والماء والزنبقة
قال الحجر:
لتكن مشيئتي ليأت ملكوتي
لأنني الحقيقة والحد
وقال الوطن:
أيها الأخوة المواطنون
من أحبَّني منكم
فيأكل التفاحة وليقذف بالحجر
ولأن حزني شديد والسماء بعيدة
لم أحفظ شيئاً في قلبي

فاشهدوني يا أخوتي وأبناء عمومتي
ممزقاً بين التفاحة والحجر والوطن..

وقال في رثاء نفسه..

السلام عليك يا زوجته يا أرملته
يا مضطجعةً على أعشاب جسده
يا مستحمَّةً في ينابيعه المسمومة
يا راكنةً الى ظلّه
راجعةً بين رئتيه
واقفةً على خاصرته
صاخبةً بين جبهته وسلسلة الظهر
السلام عليك يا خبزه المقدس
يا نبيذه الممهول بالدم ووقود القاذفات
ها هم قد أقبلوا من الظلمات
حاملين جثته العارية
على رؤوس أصابعهم المقددة

فاحفني قليلاً من كوثر ينابيعك المنسيَّة
لجواده الأبيض الصاهل على التلال
انهضي واشهدي راحته المبسوطة في الظل
مثقلةً بالسُّور والفهارس والأخاديد
واقرأي مستقبله كيفما تشتهين
أيتها الحرة في تخوم عبوديته
لقد ثلموا خنجره وكسروا بندقيته
فاحفني قليلاً من الدموع والدم (ووقود الطائرات)
لجواده الأبيض الصاهل في الوديان..

وقال في رثاء الجندي المجهول..

أنوح على طولك الحلو
يا سندي. يا أمير العرب
أنوح على سرج خزّ ومهماز فضّه
وأندبُ مثل النساءِ،
ركائبك العاليات الذهب
ومأساة ومضَه.

الى أين يمضي مطهّمك اليوم. والبيد رحبه
الى أين يمضي؟
وأنت مقيم على عهد سيدة السيدات
الى أين يمضي؟
وأنت الطريق. وأنت الجهات!
الى أي أفق يخب؟ وأية أرضٍ
تثير صهيله
وتُنخي القبيله؟
دع النوم. يا جسر نسلي الى الضفَّة الثانية
أتسمعني؟
نهضتْ نجمةُ الصبحِ
واغتسلتْ بالندى الياسمينه
وها هم رفاقك في السفحِ
ها هم يطيرون شوقاً الى مطلع الفجرِ
فانهض اليهم،
وها هو في الافقِ سور المدينه!

وقال في رثاء الذين لم يموتوا..

أيّ سلامٍ هذا اليغمرُ نفسي. أيّ سلام
هذا الصمتُ الرطبُ الشاسع
هذا الضوء الساطع.
نائمة مملكتي. مملكتي تحلم
في ظل الأشجار الشهباء الكرويّه
«ذهب الذين أحبهم»
والدرب وحوش ضاريةٌ
«وبقيت مثل السيف فردا»
ودروع الموت قويه..
ذهبوا في كل وسائل نقل الأحلام
سيدة الأحياء الموتى
قاتلتي الجنيَّه!

أي سلام هذا اليغمر نفسي
وأنا أتنفَّس في السجن وفي المستشفى

رائحة الجثة والآمونياك
وصفوف جماجم أحبابي وجماجم أعدائي
تتزاحم في هرجٍ تحت الشبَّاك..
(وأنا يا كفر قاسم
أنا لا أنشد للموت. ولكن
ليدٍ ظلَّت تقاوم!)
أنشد للريح الممنوعه
أنشد للأيدي المقطوعه
لا يُفرح قلبي أنَّا ما متنا
يُفرح قلبي.. أن نحيا!

«ويوم كان حنان وقيافا رئيسي الكهنة، كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا في البرية، فجاء الى جميع البلاد المحيطة بالاردن، يكرز بمعمودية التوبة، لمغفرة الخطايا..»

من يبصر يوحنا الطالع من أعناق المذبوحين؟
من يسمعه يكرز بالمعمودية في كل جهات الدنيا؟
(لا يفرح قلبي أنَّا ما متنا
يُفرح قلبي.. أن نحيا!)
الكوثر يا أحبابي

منطقةٌ مغلقة، لمناورة الفاتح والأسطول السادس
ماء الورد شحيح من أعوام
قوموا نتعمَّد في نهر الحسرة والدم
وتعالوا نصعد بالتوبة في درب الآلام..
أيتها الرئة المثقوبه
برصاص القاتل والغربه
أيتها الأبواب المختومة بالشمع
أيتها الأعجوبه
يا وجه حبيبي يا قمر الدمع
أيتها الأشجار الأمطار الآبار الأزهار
الوديان الكثبان الأيدي الأصوات
الحملان السيارات الأرصفة البيارات
الأضواء الأقدام الأجراس
الصحف الآلات الموسيقى
الأعلام الأعياد
الميــلاد
أنتظر الميـلاد
ها أنذا.. أنتظر.. الميلاد!

إلهي، إلهي،

لماذا قتلتني؟

حتى نكون متساويين حول مائدة المفاوضات
ينبغي عليَّ أولاً أن أفضح العالم
من ثمّ، نتبادل التحيات والسجائر الفاخرة
ونستدعي رجال الصحافة ومصوري التلفزيون.
في هذه الاثناء الممهولة بالزئبق
خير لي أن أراجع دفاتر حساباتي الموروثة
وأن أتقصَّى وجوه الاحتمالات
كل معادلة بحساب
فلم يعد من المحتمل ـ أو المنطق ـ أو اللائق ـ
أن أظلَّ فارساً من الفسيفساء
يطأه السيَّاح في طريقهم الى «قصر هشام»
أو حيواناً جريحاً يطن حوله النحل والذباب.

منذ بدايات لا حصر لها
يتكرر الأصيل والسَّحر على غربة الحمام الزاجل
بينما وردة القراصنة
تنمو وتمتدّ بعطرها السام..

منذ بدايات لا حصر لها
وأنا أتناول القربانة
وأترك الاجراس الوحشيَّة
سائبة تقرع بلا انقطاع بين صدغيّ
(جمجمتي موصل جيد للحرارة والصوت!)

في هذا الزمن الغثّ
أضيئت شمعدانات الزيف حول جثماني المسجَّى
حيث كان أحبابي الأعزاء
ينفقون دمهم وأكاذيبهم الساذجة
في مقاهي الشيش بيش والنراجيل..
وعلى أية حال،
لم أكن لاختار غيرك يا مواجهة ثلوج العصر،

بجلدي هذا المرقَّع،
واقفاً للأعاصير والميول والضعف الانساني
إبطي قنطرة الريح والرَّدى
ويا خوف عكا من هدير البحر!

آن الأوان للاعتراف
بأنه كان بودّي أن أنصرف بكليَّتي
لمراقبة سراج الليل والنباتات المائية
لولا وقوع هذه الحادثة الطفيفة
حادثة اغتيالي في عزّ الظهيرة!

ولأنني أملك كل هذا القدر من الحزن وسوء الطالع
يتحتَّم عليَّ أن أكون أخطر الشهود..
لا، لستُ مجرَّد شاهد عيانٍ عاديّ
يمكن شراؤه برغيف من الخبز الأسود (أو الأبيض)
في أيام البطالة المرعبة..
أنا رفيق العصافير الهلعة
والزهور المتعفنة في بول الجنود وزيوت الدبابات

وأنا، فوق ذلك
راعي السنابل المرشوشة بالسموم من طائرات الهليكوبتر
وأنا، فوق ذلك
طبيب العائلة التي تعاني قليلاً من الصداع وحروق النابالم
وأنا العائلة..

لا تقاطعوا عندليب اللهب
وهو يلقي كلمته الساذجة
(نلاحظ أن كلمته لا ينقصها قسط معيَّن من الشر!)
فهو عدوّ طبقي لدود
لأولئك العائدين من المستقبل
دون أن يبشِّروا بشيء
سوى نشارة العظام وصرخة الفزع
انهم حمقى وسيئو الطوية
فلولٌ ضالَّة وشرسة
من اقطاعيين وملكيين وقبليين وبورجوازيين
لن أغفر لهم فقد دمَّروا بساطتي
ونغَّصوا عيشة أمي الشاخصة اليَّ

وأنا أخترق جدار الصوت
على صهوة جوادي هذا الأبيض..
حتى دمي تواطأ عليَّ
ودلّ بوليس الأمن على ذخيرة قهقهاتي.
مع هذا، لم أفقد طيبتي الوراثية
فذات يوم من أيام الرماد
دسستُ لغماً موقوتاً تحت الكرة الأرضيَّة
لكنني حزنتُ كثيراً، وتراجعتُ في اللحظة الأخيرة
موقفاً عقارب الهلاك
في نوبةٍ حادةٍ من توبيخ الضمير:
أمي.. لا تسمحُ بمثل هذه الدعابة!
وذات يومٍ من أيام الرماد
ركَّبتُ للارض جناحَي طائرة نفاثة
صارت الارض طائرة نفاثة من أحسن ما يكون
حلَّقنا في الفضاء الكوني
وفجأةً أصيب الطيار بالسكتة القلبية
(بقدر ما تسعفني الذاكرة، فقد كنا على ارتفاع ٤٠٠٠٠ قدم!)
بكيتُ كثيراً من شدة الحزن على طائرتي الهاوية

شاهدني الملاك جبرائيل
ولكنه لم يخفَّ لمساعدتي
الهي!
لماذا
تخلَّيتَ
عني؟

أنا مأخوذ بهذه الارض
ولا أريد أن يتاخم البحرَ بحرٌ آخر
خلال عينيْ حبيبتي أطيل النظر
الى جبال بلادي المشعرة
كصدر أبي المكسوّ بالسنديان
أجوس البيوت البيضاء ببصري الزائغ
وأتسقَّط أخبار المجد وحكايا العشق الالهي
في مطاوي الأغاني الشعبية
بينما يثرثر الدوريّ مزهواً أمام أنثاه
وتتحفَّز القبَّرات الجبانات لاقتحام البيادر المهجورة
إلّا من الأصداء القطنية العالقة في الأثير المنخفض

فوق حطام أرغول فلسطيني
تقلبه أصابع الريح الشمالية والخماسين
حاملة اليه أنفاس عازفه البعيد..

كل هذا رائعٌ حقاً
لولا هدير الطائرات المقاتلة
فوق الذقون المشرّشة في الصدور
من شدَّة ما سفحت الجباه مذلَّتها
على وحول الدم والإسمنت الطازج!

في منتصف الطريق
بين فيتنام ونوادي نيويورك الليلية
يتعلق صبيّ الكساح
بحزام جنرال يفتل شاربيه الحليقين
كحبال المشانق.
حضرة الجنرال يتطفَّل بجنوده على الفرح
ويتطفَّل بجنوده على الحزن..
هنا دوسٌ واضح لابسط حقوق الانسان

وانني لأحتجّ..
على العالم أن يسمع هذه المرة ودائماً
أحتجّ بكل غضب
على هذا الخزي المطلي بماء الذهب
هذا الخزي الذي يقتنص الحواس غير الناضجة
يقتنصها برشاقة الكهرباء
كهرباء
Electricity
חשמל
مهما كان أسمها تبقى شيئاً مفيداً ومدهشاً
وهي كلمة جميلة وعالية في سقف الحلق..
لكن.. تصوَّري أيتها المدينة الجاهلة
تصوَّري جميع أسلاكك الكهربائية
وقد انقضَّت عليها صاعقة فمزَّقتها
وطرحتها على اسمنتك الطازج المبلل بالدم
هكذا.. هكذا..
أرقصي أيتها المدينة الجاهلة المدينة الزانية
أرقصي هلعاً!

فيا له من مشهد رائع
ويا لي من فتىً شرّير
حين أرى رقصة رعبك
متمتِّعاً، مستلقياً على قفاي من الضحك!
(ألا يحقّ لي أن أراك كما ينبغي ولو مرة واحدة؟!)

لقد ضبطتُك أيتها المدينة الزانية
متلبِّسةً بالجرم المشهود..
في ساحاتك المزدانة بالاعلام وأقواس النصر
شهدتُ أعياد مشوَّهي الحرب
واكبتُ الجنازة واشتركتُ في مراسيم الدفن
رأيت اليتامى الصغار وهم يضعون أكاليل الزهور
على أضرحة آبائهم المطفأين كأعقاب السجائر
رأيتُ عيون الخنازير الغلاظ وهي تلعق سيقان الارامل
رأيتُ البزنسمن وهواة جمع البانكنوت
وهم يجففون دموعهم التي لم تسل
بينما تعزف الموسيقى العسكرية
النشيد القومي!

لنقرأ معاً «كفاحي» للهر هتلر
هذا السيد الصغير المعتوه
(ليس معتوهاً تماماً
فقد أدرك جيداً ماذا يريدون منه
وحقق في وظيفته نجاحاً لن يُنسى!)
لنقرأ معاً،
لكن كيف استوعب أن يجلس مثل هذا الشيء
على عاصمةٍ عظيمة
بين خط الطول ١٢ وخط العرض ٥٢
قَدَمُ على كتف نيتشه
والأخرى على عنق فاجنر
بينما جيوبه محشوَّة بمفاتيح القلوب والمصانع

اليوم،
يكفيني ان زرتُ بوخنفالد واحداً
حتى اكتشف سذاجتي وحماقتي
ازاء هذا القدر الهائل من القسوة البشرية!

الهي!

لماذا

تركتني؟

اسمع يا الهي

أيها الاله القاسي المنتقم

يا من يفتقد ذنوب الآباء في الابناء

في الجيل الثالث والرابع

اسمعني جيداً

فما أقوله لك لا يستطيعه الآخرون

أولئك المقعدون

في الصالونات الأدبية والدواوين الحكومية والاكاديميات

يشقّ هذا الصوت على الشحاذين المتسكعين

كالبراغيث، في بيرق الشعر وقميص الكلمة

أولئك الذين يفصِّلون الأغاني

صرعات صرعات

سيارة سبورت موديل ٥ حزيران ١٩٦٧

ابتسامات نواب الوزراء ورؤساء البلديات

ثم رشوة الأحزاب السافلة والمؤتمرات السياحيّة!

يشقّ هذا الصوت على كهنتك وسدنتك
والمختبئين كالجرذان تحت مسوحك الفضفاضة
اسمعني لتبعد عني أفاعيك المجنحة
بنواقيسها المثيرة للغضب
اسمعني، لتقدم استقالتك
أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
بسم الله الرحمٰن الرحيم
السلام عليك يا مريم
يا والدة الله
يا ممتلئة نعمةً
صلِّي لأجلنا

"טוב לגבר כי ישא על בנעוריו
ישב בדד וידום כי נטל עליו
יתן בעפר פיהו אולי יש תקוה
יתן למכהו לחי ישבע בחרפה
כי לא יזנח לעולם אדוני"

الهي!

لماذا

زنحتني؟

حوَّلت خدّي دائماً

لصفعة العدوّ والصديق

يا ربنا وربَّهم متى تفيق؟

يا ربنا وربهم ألا ترى

كلابهم تجرني من غرفة التحقيق

شلواً من الاحلام والحراره

أنت ترى

دعني اذن أضربهم بقرحتي الجبَّاره

دعني اذن أهشِّم البريق

في أعين الكلاب (ولتكن

قهقهتي مطرقتي!)

يُفتح باب غرفة التحقيق

(دورك أنتِ الآن، يا فاطمة الزهراء!)

حوّلت خدّي دائماً
لصفعة العدوّ والصديق
يا ربنا وربهم
ولم أعد أطيق!

الهي!
لماذا
نبذتني؟
لماذا جعلت الموت فضيلتي الوحيدة؟

أرقد الى جانب أهلي في دنس الاردن
في حمأة نهر الموت مملع الجسور
الطافح بالشرايين الملتهبة
والعيون الجاحظة بعدم التصديق
ساخطاً مأخوذاً أرقد
مدثراً بالاسماك الصغيرة الملونة
والنباتات المائية
بأوراقها الفسيحة الساجية
توشك أن تتفجر باحتقان خضرتها، هذه الأوراق

أرقد هنا بعفوية غريزية
ويتفجَّر هتافهم المحتقن في مغاور الجبل:
فلتسقط العفوية!
الرمل الجليديّ هذا الجليد الرملي
لا بد له من بركان مُعدٍّ باتقان تام..
ولا ينقصني النموذج
فأنصب محجريَّ راداراً للرياح
وفي عزّ الظهيرة (حيث وقعت الجريمة كما تذكرون)
ينزو وجهي الغاضب الى الاعالي
يكسر الحدَّ الوهميَّ بين الشمس والارض
لتصيح الأجيال من صُلبي:
هذا هو الكسوف الحقيقيّ يا رجال البلاستيك
أيها المحشوون بالقطن المعقَّم والانتيبيوتيكا
فأقيموا حفلات كوكتيلكم في البيت الأبيض
وأعدوا كأسي المسمومة..
لن آتي أيها الحمقى
لأنني منهمك بدودة التّفاح وحشرات البرتقال!
بين عصر وعصر، تتجشّأ الجريمة

لتتشكَّل من روائح بلعومها الكريهة
خرائط ودساتير..
منذا الواقف وراء كل هذا العبث الناجز
أعطوني تفسيراً معقولاً لكلمة «معقول»
أعطوني مفهوماً حقيقياً لكلمة «حقيقة»
ثم فكِّروا قليلاً بكلمة «حب»
ولا تتركوها نهباً لقرارات المحاكم
وهيئة الرقابة الدولية..
ثمَّ اياكم أن تنسوا توجيه الدعوة
الى السير أنتوني ايدن
لحضور أعياد الجامعة العربية
لأن الرصاصة جاهزة في بيت النار
ويدي ما زالت على الزناد!
الهي!
لماذا
تركتني؟

مشرَّد في الأثير المختنق بالغازات المسيلة للدموع
(للغازات السامة تقاليدها الخاصة)
حيث تنعدم الجاذبية وتلتغي المقاييس.
ما هذا الظلام الباهظ
الذي يخيط عينيّ الحالمتين ببلاهة
يخيطهما بأهدابهما
الى مؤخرة الجمجمة الى القلب الى الاخمصين
والى أطراف الأصابع؟
أيها الموت العاديّ.. لستُ مؤهلاً لك
لستُ نافعاً في صفوف المؤخرة ومواقع الدفاع
جسدي بُردة محمد بن عبد الله
جسدي قميص العرب
وفي ملفاتي المتنقلة دائماً
بين دوائر الكاوبويز والباستيل الالكتروني
تجدون أسماء كثيرة..
هل سجَّلتُم في مفكراتكم، الاسم غسان كنفاني؟
وترفرف كالفراشة المحترقة
أهداب اصطناعية على عينيّ معلمة الميني سكيرت:

أيها الأولاد الشاطرون،
ما هي أوزان الفراهيدي في شعر كمال ناصر؟
سلوى حجازي تعاطت الفرنسية
وأحمد بوشيقي عربيّ جميل عمل نادلاً في مطاعم أوروبا

(يُفضَّل أن تكون النماذج المعبَّأة
مرفقةً بصور فوتوغرافية أماميَّة
كتلك التي تستعمل أيضاً في الباسبورتات المزيفة!)

. . . .

وهكذا، أستمرىء التسكع في الموت
والموت قبل الأوان
في الموت أفقد الوزن
وأسبح في شمولية فضاء الموت
بين الشهوة اللاغطة بالديماغوجيا
وثبات الروح الخارق
وأنهار يوم أنهار
نيازك مشتعلة

على شيخوخة العالم المأخوذ بالسعار!
بعد كل ذلك، يبقى ميراث الأحفاد
تبقى صورتي في عزّ الشباب
يوم تفجرتْ ذراعاي من صدغي
كقرني وعلٍ بدوي
ودغدغت حبيبتي قدمي النافرتين من خاصرتي
بينما انتصب عضوي التناسلي من جبهتي
كسكة فلاحٍ نشيط
كقرن وحيد القرن
كصاروخ على أهبة الاستعداد
للأنتحار فوق جثة العالم القديم
أو كجندي الحراسة بباب الأمم المتحدة..

على كل حال، فأنا مولع بالهوروسكوب
قسمتي في برج الثور
وأرى صورتي الملوَّنة المرحة
تزيِّن عُلب لحمي المحفوظة
في واجهات السوبر ماركت المبللة باللعاب

أرى صورتي هناك فأحزن كثيراً
وأكتب قصيدة طويلة في الرثاء الذاتي
غير أنني ألتهمها مع برسيم القنوت
فلا أحد يريد أن يفهم لغتي
سوى هذه البندقية الساخنة كعذراء!

الهي!
لماذا
تركتني؟

. . . .

منذ سفك الغزاة دمي للمرة الأولى
منذ زعزعتْ صرخاتي ياسمين الأرياف الناسكة
منذ تهالك يتاماي
على حلمات أمهاتهم المذبوحات تحت الأسيجة
منذ رفع لي باطل الاباطيل قبعته بأدب جم
وأنا أتلقى تلك الدعوات الرقيقة:

«سيدي المحترم!
يسعد اليونايتد نيشنز فري وارلد كومباني أن تتشرف بدعوتكم الى الاورجيا التأبينية التي تقام احتفالاً بذكراكم الطيبة..»

يظل الزجاج حبّي الكبير
نتحطم معاً باستمرار
يتلذذ بصرخاتي البدائية
وأتلذذ بصرخاته الحادة المدهشة
وهو يتحطم بين قبضتي

(حطم أيها الاله الكافر زجاج العالم وستحظى بسكرة الموسيقى العظمى!)

الآن تبدأ الأورجيا. وما من زجاج لي
لأن هؤلاء الحراس المدججين بالسلاح
فوق طاقة رغباتي الجامحة.
على أية حال تبدأ الأورجيا
تتلوى الموظفات الصغيرات
بين أيدي الموظفين الكبار
تتفجر حمحمات الشهوة بين زجاجات الويسكي
(بالثلج طبعاً!)

ويدور العالم.

أما أنا، فلا،

ما من زجاج في متناول يدي،

أرقى المنصة الفخمة المهيبة

أستل أحقادي

من فتحة بنطلوني،

وأستمني!

توقع الأطراف المعنية وثائقها الهامة

وأقذف بذاري على صلعة الكون!

....

ماذا تحمل يا ساعيَ البريد؟

أدعوة أخرى الى الأورجيا؟

لا أيها السادة

انني أحتجّ بكل ما فيَّ من موتٍ لطيف

تفو!

على صلعاتكم الفاقعة كأقفية القرود

تفو!

على أعلامكم الخفّاقة

فوق جماجم أهلي!

«فــامـــا أن تكــون أخي بصــدق
فاعــرف منــك غثي من سميني
والا فاطــرحــنــي واتــخــذني
عدواً أتــقــيك وتــتــقــينــي!»
(شاعر جاهلي)

أهلي.. يا نظري.. يا خلاص روحي واثمها

أين أنتم.. يا ذوي القامات المسحوقة كالتبن

تحت مسامير الأحذية العسكرية الثقيلة؟

وأين أنتم يا شيوخ القبيلة وعلية القوم؟

أيها الشاحبون الحالمون

بالنسل بالحور العين بغلمان الجنة والبضائع الأجنبية؟

أين أنتم

يا من تكدسون نساءكم المازوكيات

كما يكدس الهواة طوابعهم البريدية!

يا من تصطف خواتم الذهب والماس فوق أظافركم القذرة

بفوضى عساكر البادية!

أيها الملوك والرؤساء

يا مماليك سايكس ـ بيكو
أبْنوا فلسطين في مؤتمرات قمتكم
واشربوا الكوكا كولا المصقّعة
في ظلال أبراج النفط العالية
فوق ذؤابات النخيل الحزين هناك
هناك حيث تئن السعفات المهجورة:
نحن سيوف العرب البائده
نحن سيوف العرب البائده

الهي
لماذا
نبذتني؟

أيتها البيوت البيضاء
يا منازل أهلي النابتة من التراب والصخر
أي جمال يبقى بعدك لمدن الاسمنت المستوردة
تلك التي تنهب نور الآخرين
وتبقى باردة البريق

كلافتات الفوسفور؟
يا التي كانت منازل بيضاء وسناج دواخين
يا مرابع أهلي المقفرة
يا أطلال خولة
يا باقي الوشم في لحم الارض
«زمِّليني زمِّليني»
واشهدي دم أصابعي في ثمار عُلّيقك
لتعترفي بي الآنِ والى دهر الداهرين..
أنا ابنك خَيمَيتْ
أختنق في هلام الاسى الدبق
رافعاً ذراعيّ
لأتشبث بقشة عائمة في الريح
من بيادرك الملعونة السائبة في الريح
بينما يقتسم المهرجون جسدي
ويقذفون آدميّتي الى وحوش السِّيرك!

الهي

لماذا

تخلَّيت عنّي؟

أتحلل في ضبابك الوديع
هذا الناعم الناصع كنقاب خديجه
بعد قليل أندغم في عطر أعماقكِ الساخنه
بعد قليلٍ أتشكَّل في رائحةِ أعشابك
بعد قليلٍ أنطلق عندليباً طائشاً
بين رياحك وأشعةِ شمسك
ولا أحد غيري يعرفك يا بلادي
لا شهداؤكِ ولا قاتلوكِ
مثلي، لا أحد يعرفك
وغيري، لا أحد يعرفك
ولي أنا، لي وحدي أنتِ
لأنك ترابي الأحمر والأسود
ولأني رمالك الناعمة والخشنة وأصدافُك
وأنا عيونك المطفأة بالاسمنت المستورد

والأسمنت المحفور من لحمك
أنا البرقوق والسنديان وعصا الراعي
العلت السبانخ البلان اللوز
البرتقال الزيتون الصوان
الأطفال السمر الأطفال الشُّقر
العجائز القرى المقابر
الأيدي العاملة الرخيصة
المدن المنهوبة الخيول الجرذان الفراشات
الكلاب الضالة الصراصير الطقس
الليالي المقمرة الصباحات حكايا الشتاء
أنا الخلجان الجداول القذرة بزيوت المصانع الحربية
التلال الدوالي التطريز القنوات
العيون السود الصيحات الجهل الفقر
الشهادات الجامعية
اللاجئون المقيمون الثوار الخونة
أنا شعبك تاريخ ميلادك مفكرتك وأشياؤك الخاصة
يقتحمك الغزاة كما يفاجئني المرض
يدهمك السياح كما تداهم جماعة من الطلاب غرفة نومي

لا أحد مثلي يغنيكِ

لا أحد مثلي يبكيكِ

ولا أحد مثلي يمقتكِ

أمقتك أمقتك أشد المقت!

الهي

لماذا

شبقتني؟

في رمق النهار الأخير أقعد قليلاً لأرتاح

أنتخب صخرةً لم تصادرها بعد دولة الكيرن كييمت

وأقعد قليلاً لأرتاح

أنزل عن جبهتي اكليل الشوك

في طقوسية تامة

ثم أفك رأسي لأنظفه من سناج السيارات

ونباح القاذفات المقاتلة في عيد الجثمانية

ومع طلوع الفجر

أعيد رأسي الى مكانه الطبيعي!

(من؟ يقرع؟ بابي؟
في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟
أيها الناس
يا روح العالم الحكيم يا روح الحكمة
تعالوا وتفرَّجوا
كيف تنفِّس الشرطة كالبالون
أمام ابتسامتي العالية
ابتسامتي هذه الأبدية!
ألف مرة قرصتُ آذان الاباطرة الوسخة
جعلتُهم يركعون في القرنة
ويباتون بلا عشاء
وها هم لم يتعلموا بعد
أف
الحمقى القوادون!)
تتحلَّق حولي الفراشات والجنادب المذعورة
لتستشيرني في أمر الغداة
أبكي قليلاً (قبل الطعام وبعده) كمشيئة الطبيب
ثم أفتِّتُ رغيفي للأسماك وعصافير البرية

أحنُّ الى شبابة راعٍ في بخار الينابيع
وأبكي كثيراً وأموت حتى السَّحَر
(تصبحون على خير أيها الأحبة
تصبح على خير يا الهي!)

ارفعي رؤوسك أيتها الأبواب لتدخل صبية البرتقال
أيتها القناطر تبرجي
هي ذي عروس الزيتون قادمة
ولتهدأ ريح الجليل قليلاً
ولتصغ شموس الياسمين الى مراثي
فسأرثينَّك الى الابد.. الى أبد الآبدين.. الى الغد
يا طيَّارة الورق المخطوفة من أصابع طفولتي

(ملاحظة تاريخية:
رداً على الحرب العالمية الأولى
والحرب العالمية الثانية
والحروب العالمية
والحرب
كان لا بد من اعدام طفولتي رمياً بالرصاص!)

لشد ما يخجلني فقري المزمن
في حضرة يديكِ الحالمتين بالمواسم

المخضلّتين بالدم، بندى الخفر والعافيه
يا صبية الهلال المتلألىء بالذهب
كخنجر عربيّ مخبأ الى الغد
في عُب زيتونةٍ رؤوم.
لشد ما تخجلني يدي الخاوية
الا من تفاحة حبكِ القاتلة
وغدائر شعرك الحافلة بالنجوم
كشجرة عيد الميلاد
لشد ما يخجلني... وعذري معهم
كان لا بد من اعدام طفولتي تلك رمياً بالرصاص
كان لا بد من اعدام طِفولتي تلك
كان لا بد من اعدام طفولتي
كان لا بد من اعدام..

الهي
لماذا
هجرتني؟

لا. يا سيد المونوكول والبابيون والنابالم
لا. أيها المتخم بالحضارات وقشور الحضارات
ليست المسألة بهذه السهولة
ولا أستطيع السماح لك بالنوم الهادىء العميق
الى جانب سيدتك المدللة
المغفية وعلى صدرها «عشيق الليدي تشاترلي»
أنت تكدس في بيتي المقلوب
اسطوانات باخ، بتهوفن وتوم جونز
أنت تشرب القهوة بالحليب على شرفة عمري
وأنا أحصي همومي ومواليدي
أحصي ليالي الشتاء وحفنات الطحين
في خيام وكالة الغوث.
لا عدالة في ذلك
ولا منطق في ذلك على الاطلاق
اذن فاسمح لهذا الحاضر الغائب أن يزعج قيلولتك المسلَّحة
منشداً تحت شرفته الاسيرة
الممتدة على كل آفاق الكون
الغائصة في لحمه كحربة:

«في الامطار عائدون
في الاعصار عائدون
في الرمال في الرياح
في التلال في البطاح
عائدون عائدون عائدون!»

. . . .

فاطمتي الزهراء
يقذفها الجنود من أقبية التعذيب
موجوءَةً مهينهَ
حبيبتي المسكينه
باحت لهم بكل ما تعرفه عن سرّنا الحبيب
(يطوّق الجنود بيتاً نائياً
في طرف المدينه
نعالهم تسحقُ في رويّةٍ
طفلاً ودكاناً وياسمينه
ويطلقون نارهم
ويشعلون في الجذور نارهم

ويزرعون عارنا

ويحصدون عارهم

وتنحني المدينه!)

يصدّع البرقُ زجاج البيت والسماء

وتلسعُ المحاجر الحمراء

حبيبتي فاطمتي الزهراء..

يا ناس كُفُّوا لحظةً

ماذا يفيدُ لومُها

صغيرةً كانت،

وما أورثها والدها سيفاً

ولا حنتْ عليها أمُّها

مسكينةٌ حبيبتي يا ناس

مسكينةٌ فاطمتي الزهراء!

مثقلاً بالجراح

موصوماً بالوردة الكانيبال

كان عليّ أن اعتل حقيبتي المملَّعة،
كحذاء قديم..
شتمتُ القبطان في سرّي، باحثاً بنصف عين
عن سائحةٍ أجامعها قبل الفجر
ويكون سريرنا
زورق النجاة المرتجف في هواء البحر الثقيل
(نستطيع أن نحزّ الهواء بالسكين كقطعة جبن)
هيه أيها الفتى النحيل الضائع
انعف شعرك الطويل
عساكر منهزمة بفوضى
في ريح الليل المشبعة بالضجر انعف شعرك
وادعُ النوارس الذليلة
الى وليمة جيتارك المُطعَّم بالملح والرحيل
أطلقْ وجهك الشاحب في المجموعة الشمسيةَ
وازعق بأحزانك، ببارودك المشتعل
ازعق يا صغيري
فأنتَ في مأمن من موظفي الدوائر
وأسماك القرش المباشِره!

غن للسلام
يا ذرةً من غبار الجيوش الجراره
ثم آبكِ قليلاً مع صخب الأمواج والمحركات
أوضح موقفك الدقيق
للآنسة «سوزان» التي أجهضت مرتين
حفظاً على سمعة العائلة!

عما قليل تذبل زهور الشاطىء البعيد
ويجيء دوري
سأغني لك أغنية نادرة
عن فلاح عربي من فلسطين
عن صائد أسماك يوناني
عن فايكنغ أخير
شهد الحرب الكونيَّة الثالثة
وأبلى فيها بلاءً سيئاً
(الفلاح العربي يحفظ عن ظهر قلب
تغريبة بني هلال
صائد الأسماك اليوناني

مصاب بالسلّ في جزيرة يورا)

وأنا أغني لك

لسفينتنا الراحلة أبداً

للنوارس الجميلة الذليلة

أغني لقدميّ المتعبتين

وللعالم:

«توتو توتو

هعربيم يموتو

بيوم ريشون!»

الهي

لماذا

هجرتني؟

كالنمل

كالنمل نغلت في كل جهات المعمور
فمن أين أنت أيها الاحساس القاتم
بأنني أراوح في مقبرة الأجداد
كابرة ماكنة الخياطة؟

(كان لنا بيت
كانت في بيتنا ماكنة خياطة
كانت من ماركة سنجر
خاطت لي أمي مريلة مدرسيّة
كانت مريلتي ورقة تين
كانت لنا أشجار تين كثيرة
مريلتي المدرسيّة بيضاء كالثلج
كانت الدنيا تندف ثلجاً في الشتاء
(ثلج هذه الأيام يستورد بالطائرات)
كنا نقذف العابرين بقبضات الثلج
ونقهقه على سطوح الطين)

أراوح في مقبرة الأجداد
بينما يندرز العالم تحت قدمي كقطعة قماش
هامش الأرض جسدي السائب
وروحي محورها المقيم
فانظرني أيها الاله المنقطع البيروقراطي

أفترس نفسي كحريق معزول
وأصوب الى حلقي مضخة الأستما
مشغول البال على حبيبة طفولتي
وياسمينة الدار..

الهي
لماذا؟

في زمن العُقاب
أَطبخُ الموت في حليب أمه
حسب أحدث مبتكرات الطهاة الموثوقين
أحمله في سفرطاس غربتي
وأنطلق مركبةً فضائيةً.. في زمن العُقاب
نسبقُ الضوء في دورتنا حول الكرة الأرضية
أنا والحزن نسبق الضوء
ولم أعد أفهم أيُّنا يتعقب الآخر
كمخبرٍ بوليسي نشيط..
ولو!

أإلى هذا الحد يمكن أن يبلغ العذاب؟
ولو!
قطيعة تقطع هالعيشة!

ها هم يغسلون جلودهم المنزوعة كالأوفرولات
في نهر الدم الطازج.
على الضفة الأخرى يكتب الآخرون لافتاتهم المستعجلة
بلغتهم الطارئة وحدها..
لا بأس في ذلك،
إنه سبب جيد حتى يتذكر أطفالنا كل شيء
أما أحفادنا فلن يتجشَّموا هذه الترهات
سيكونون أوفر حظاً منّا!)

و... يا طالع الشجره
هات لي معك بقره
هات لي معك بكره
شكره بكره
قال لي ربي عدّ العشره

١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩

كوليرا

يتنشر الرعب سيولاً مفاجئة
كدخان الحرائق المتوحشة ينتشر الرعب
ها هم سكان المدينة الزانية يرتجفون فزعاً
يهجمون على المنازل المنكوبة بالوباء
قبضاتهم مشاعل هستيرية
أصابعهم كمَّاشات رعب
يخلعون جذوع الزيتون والبرتقال
يمسمرون بها أبواب النكبة
ثم يسكبون أوعية النفط (على أصص الورد أيضاً)
من خلل أفاعي اللهب والدخان
يتشبَّث بجلدي زعيق الأطفال
يتشبث ككلاليب الجزارين..
أعرف هؤلاء الأطفال معرفة «شخصيّة»
جوني. سمير. الياهو. شن. راج. ايفان..
لعبتُ معهم الاكس وقفزنا بالحبلة

سمير. الياهو. شن. جوني. ايفان. راج..
متى نكتشف أنهم متشابهون تماماً؟
وأنني لأتحداكُم أيها الأغبياء
أن تميزوا بينهم من زعيق اعدامهم هذا
لا.. لا قبلَ لي بكل هذه القسوة

يا اله الأطفال
لماذا
تخلّيت عنّا؟

عامرة مكتبة «أبي قترة»
بطل الأزمنة جميعاً وضمير البشرية العميق
وعامر ذهنه الرشيق، بكل خفايا الصدور
رأى سنحريب يشتري السوفينير من مهزومي القدس
ورأى يحزقيئيل متسكعاً على أبواب الأمم المتحدة
عارضاً على المندوبين صور بناته العاريات
بأبخس الأثمان..
رأى أبو قترة أدق خلايا الموقف
لذا فهو لا يزال صارخاً بي من محور الأرض:

لا تسكت يا يشعياهو!

لا. لن أسكت!

وقد كان خليقاً باله مسن أن يعد دروسه

«عندما تكون في الحادية عشرة فقط، لا تكون كبيراً
حتى تستحق هذا القدر من الهجر. هذا يجعلك تطمس،
تمحي، تنحل، تتبخر تحت وطأته!»
وليم فولكنر- اللصوص - ترجمة خالدة سعيد

كم مرةً ينبغي أن تُسبِدَ حشائش سطوحنا المهجورة؟
كم مرةً ينبغي أن نُذبح بياقاتنا المنشّاة؟
كم مرةً ينبغي أن تتفاقم ديدان النسغ؟
حتى نتمكن من مواجهة سنحريب بالحقيقة:
مع السلامة يا صاحب الجلالة
لا نريد أن نبيعك شيئاً!

. . . .

فولاذي زهرة. زهرتي مسحوقة تحت جنازير الدبابات

«أنت الرحيم وأنا عبد الرحيم
أنت الحكيم وأنا عبد الحكيم
أنت المعطي وأن عبد المعطي
أنت السلام وأنا عبد السلام
أنت تكيص الفضائل وحدك
أما أنا، فالعبد..
أشوب شوباً ليس لي منه شيء..»

إلهي
لماذا
غبنتني؟

مرةً أخرى يزورني مَدّ الليل ويرتفع حتى الخناق
خيول بيضاء كثيرة تخرج من جسدي
تصهل على التلال الماطرة
وتنطلق عكس الريح
غير عابئة باشارات الضوء وشرطة المرور..
هذا خيرٌ من لا شيء
وهذا خير من أشياء كثيرة
وهذا خير من القواميس العسكرية النذلة:
طائرة ال ـ عال = هدف مدني
مصنع أبو زعبل = هدف عسكري
بيارة منهوبـة = هدف مدني
سنابل عقربـة = هدف عسكري
مستعمرات الجولان = هدف مدني
مطار بيروت = هدف عسكري
مدرسة بحر البقر
دير ياسين = هدف عسكري
كفر قاسم
فاطمة الزهراء = هدف عسكري

تقول لي البصارة، وأن أتحسس فخذها الشهي:
بختك مبخوت
على ورق التوت
تزج بجميع سكان العالم
في جميع وسائط نقل العالم
تخطفها الى جميع أقطار العالم
وتفوز بجائزة نوبل للسلام
وتعيش بالثبات والنبات
وتخلفُ صبياناً وبنات..
يدي تعالج حاملة نهديها العسكريين
وعيناي ضارعتان الى السماء..
الهي
لماذا
تركتني؟

«لا غالب إلّا الله!»
في رقّة ملاك
يهبط الكاردينال الوقور، بأطراف أصابعه

على رتبة الجنراليزمو المبارك
ينهض هذا في جلال قيصر
بغتةً، تلمح عينا بروتس
عنواناً رئيسياً في صحيفة المساء الكبرى
ينخلع قلبه هلعاً، ويعدل عن فكرته..
وعبر غابات الزيتون الرمادية المسبدة
يعطي قائد الحرس القومي اشارته المعروفة
أنظروا اليه..
أيها الناس أنظروا
ها هو فدريكو غارسيا لوركا
يُحلق عالياً.. «أُلّليه»
عالياً.. «أُلّليه»
الى التراب الذي عطرته قدما «ماريانا بينيدا»
فدريكو يحلقُ الى التراب
(وتزغرد أمي
تزغرد دموعها وشالُها الأسود)
فدريكو.. أيها الطفل القاتل
يا حبق الشرفات الأندلسية (العائمة في شمس الجليل)

لك أنتَ قطرة الحليب الأولى على حلمة غرناطة
فانهض من ضريح العشب ودافع عن ابتسامتك
وأنا، لا أريد عندليب شرايينك
أريد الصيحة الأخيرة في موديلات الموت
مع زجاجة «آفتر شيف» ماركة «تباك»
وأريد ابتسامتك
وأريدك أن تأتي في أول طائرة حربية
لتزفَّني الى حبيبتي المذبوحة تحت السياج
جميلة الجميلات حبيبتي وقدس الأقداس
أقبل عبر هذه الرخامة لتكون أشبين موتي
ومن ثم نسبح عاريين في البحر المتوسط
ونمجد فرسان الجبال المغلوبين على أمرهم!

«لا غالب إلّا الله!»
بغتةً، تلمح عيناي خبراً رئيسياً في «معريب»
أتقيأ حزناً وأعدل عن فكرتي..
الأسطول السادس يشطف قفاه في البحر المتوسط
البحر المتوسط بصقة جدي على وجه الجنرال اللنبي

والبحر المتوسط قعَّادة طفل يولد من صُلبي..

«أديوس!».. يا فدريكو الطيب الجميل
ها أنذا ذاهب لشأني
ذاهب لأقايض موسم الزيتون
ببندقيةٍ واحدةٍ على الأقل!

لا بد لي أيها الاله الطيب
لا بد لي من غرفة أكاشف فيها مواجعي
وأحزان رهائن الحرب.
لتكن مجرد غرفة
عالية أو منخفضة
ضيقة أو فسيحة
المهم أن تكفي لبعض التفكير في القرحة الملحاح
ولميلاد مرثية حافلة بغرغرات صباح مذبوح.
لا بد لي من أربعة جدران وسقف ومصطبة
في مدينة الجبل الساحلي
حيث ترتفع عمارة شركة «صيم» للملاحة

في تعايش سلمي تام
مع أنقاض مسجد مجاور مهان
لم يبق منه سوى مئذنة متصدعة.
تعال معي أيها الاله الطيب
نستأجر غرفة متواضعة في ملكوتك الفخم
الشامل الشرق والغرب وما بينهما.
نقرع الجرس الكهربائي الطازج
المتطفل على منزل الحجر القديم
بأقواسه العربية الحميمة كاءبط أم
تشق الباب المستور بالفورمايكا (الباب فضيحة قديمة)
سيدة أجنبية
لن يجرؤ مخلوق على الزعم
بأنها متناسقة مع الأقواس الحميمة
يهمس لي الروج الفاقع تحت ملاقط الشعر:
«ايجار الغرفة ٢٠٠ ليرة
أنت شاب جميل
ايجار الغرفة ١٥٠ ليرة
لكنني آسفة

لا أستطيع تأجير منزلي للعرب!»
ومن هناك
من وهج الصحراء النابضة تحت الشمس وأبراج النفط
من هناك
تتهدج غمغمات الشاعر الحزين
مع الخماسين اللافحة:

«لـك يا منـازل في الـقـلوب منـازل
أقـفـرت منـهـا وهـي منـك أواهـل!»

أذهبُ لانتحر تحت عجلات القطار
أمشي دهراً
أركض أزحف الهث دهوراً
يجيئني من بعيد، صفير القطار الوديع
كزغرودة أمي ليلة دخلتي يجيء
يدف رف السنونو نحو البحر
وقبل سقوطي على خطي الفولاذ الرحيم
يسقط عليَّ الحاجز الوقائي
ويشطرني شطرين!

لماذا

تركتني؟

ليأتِ الشغف المشبوب في أجساد البشر
لتأتِ حمّى الشهوات اللذيذة
لتأتِ مراجل الدم الموعود
تلك الموشكة على تمزيق شرايين الرقاب
ليأتِ الهيجان المد الغضب الصراخ الصناعة الثقيلة
ليأتِ الحُب.. لتأتِ الثورة
ليأتِ الأحمر!

وليأتِ أطفال السنابل
والأطفال
والسِّباخ المورسة ولتأتِ المراعي
وليأتِ النعناعُ والحبق وطلع الربيع
ولتأتِ مواعيد الخطبة
وشهادات النجاح المدرسيّ
ولتأتِ اتفاقيات السلام والتعاون

وشهور الوضع، وليأتِ الحُب..
ليأتِ الأخضر!
وليذهبْ فتور المودات
ولتذهبِ الخيانة والحسد والنميمة
وليذهب سوء التفاهم والافتئات
والشكوك والقلق والخطر والضغينة
ليذهب البنفسج!

وليرفق بي هذا اللاوضوح
ليرفق بي هذا الزئبق
هذا السمك الحي الزلق
ليرفق بي هذا الليلك..
أيها الليلك المائج المتكثف المتلاشي
رأفة بعنفواني المهدور في شقوق العالم
حدث كل ذلك في الموعد المحدد بالضبط
فحين خرج السيد قابين للصيد في الغابة القريبة
لم يُحسن التصويب كما يليق بصياد ماهر.
فسقط أسد شاب (لم يكن شبلاً ساذجاً)

بعد أن أصيب بجراح طفيفة نُقل على أثرها الى المستشفى
وهرعت الشرطة لمباشرة التحقيق.
ويضيف مراسلنا العسكري
ان الأسد الجريح صرّح لوكالات الأنباء بما يلي:
«المسألة بسيطة لا تتجاوز الموت العابر»
وقال وهو يتحسس ضماده:
«على أية حال فسأفترس السيد قايين في المرة القادمة
ما لم يحسن تسديد الضربة القاضية!»
وانصرف المدعوون
بعد أن تبادلوا السجائر الأمريكية الفاخرة
والعناوين وأرقام التلفون..
حدث كل ذلك في الوقت المحدد بالضبط
وما زلتُ أنا مطروحاً على بساط البحث
كحجر على رقعة شطرنج..
ومنذا يسمع صرختي
منذا يسمع صرخةً
منذا يسمع

الهي

الهي

لماذا

قتلتني؟

اللهمَّ لا أطلبُ قلبك

كفّ عني يدك

لا ثوابك ولا عقابك

لا يُسرك ولا عُسرك

أَرتجتَ عدلك لغزا

وجعلت القسمة ضؤزى

سيمَ سقرا

فانبرى

ما عليه اذا كفرا

أفتماريه في ما يرى؟

صدق الموت العظيم..

ثالث أكسيد الكربون

تعريف بثالث أكسيد الكربون

لما كانت مراجع الكيمياء والفيزياء وكل مدبَّجات العلم، عاجزة عن اسعافكم في أمر «ثالث أكسيد الكربون» فقد أخذت على عاتقي ـ وهذا واجبي الشخصي ـ أن أعرفكم بهذه المادة.

زعم العلماء أننا حين نزفر فإننا ننفث مادة تدعى ثاني أكسيد الكربون. لقد دلل هؤلاء الفاضلون على نظريتهم مستعينين بالمختبرات الحافلة المهيبة، بيد أن أبحاثي الخاصة في المختبر الأعظم أوصلتني الى حصيلة جديدة:

إن المادة التي نزفرها أكثر تعقيداً وتركيباً من «ثاني أكسيد الكربون» فهي تشتمل على عنصر سايكولوجي هو من العناصر المكوِّنة لما تعارفنا على تسميته بالروح.

إننا نظلم انسانيتنا ظلماً فاضحاً حين نتجاهل مادة الروح التي ننفثها مع زفيرنا آلاف المرات في اليوم الواحد من أعمارنا لا سيما في أمبراطورية صهيون الفتية. مادة الروح هذه مكونة من عناصر الحزن والفرح والتشوف والقلق والنصر والهزيمة وهلمجرا.. وهي تؤثر في أجسادنا تأثيراً مادياً، ونحن ننفثها مع زفيرنا آلاف المرات في اليوم الواحد من أعمارنا..

هكذا نرى أن «ثاني أكسيد الكربون» ليس سوى جزء من المادة التي نزفرها.. أما المادة الكاملة التي ننفثها آلاف المرات في اليوم الواحد من أعمارنا فهي مادة «ثالث أكسيد الكربون» وللبيان حرر.

سيرة بريطافور

في البدء سيخرج الأطفال وقد عبأوا جيوبهم بالحلوى
سيتسللون الى معسكرْ الدبابات والمجنزرات
سيدسّون قطع الحلوى في صهاريج الوقود
سيكتشفهم الجنود سيفتحون عليهم نيران رشاشاتهم
سيسقط الأطفال صرخات مكتومة لكنها ساخرة
ستتحلل أجسادهم الصغيرة في رمال الصحراء
ستنضج السنابل ستتلألأ كواكب التفاح والكواكب
ستتفتح المدن الصناعية، المزارع الجماعية
سيولد الأطفال وأطفالهم
أما أنت يا بريطافور فلن نغفر لك.

بريطافور أيها الديناصور القاتل لن نغفر لك
دمنا لن يجف...
فرح دهورك تزلزله لحظة من حزننا
وما أشد شماتتنا بك يا بريطافور
أيها الديناصور الغارب مع أمبراطوريتك الغاربة
شمسنا تشرق كل يوم، يا بريطافور المجؤوف
لن تقوى على النظر الى شمسنا لأن دمنا قطرة أولى
ويتبعها نهر الأسى الدم الضوء.

كانت هناك طفولة أخرى وانجذابات أخَر
كان السيف العربي مستلقياً بين البحر والصحراء
عاقداً راحتيه تحت رأسه
كان مكشوفاً تماماً للصواعق والشموس والدوامات الرملية
أما الصدأ فظل مستحيلاً
ذلك أن المحارب القتيل لم يجد من يسبِّل له جفنيه
ظنته الوحوش والصدأ والهوام يقظاً فتململت وتحلّقت حوله
وجأرتْ وصاءَت مشحونة بالهلع...
غبّ الليالي الحالكة الطويلة جرؤت الضواري والجوارح

على اقتحام الفارس المسجَّى
نالت الحشرات والهوام والعوادي نتفاً من أطرافه الميتة
تفجرتْ ومضاتٌ من الدم الكامن
ارتعدت الدواب المفترسات فرقاً
تقهقرتْ الى مرابضها
كان الدم متربصاً في طبقات الوعي الدنيا
متململاً في أغوار الصحراء
وكما تدفق الدم من أبراج البترول الفارعة في الهجير كالنخيل
والمآذن... تدفق من فوهات البنادق...
وكنت أنت هناك يا بريطافور...
يا ديناصور الزمن اللعين...

عذارى يافا وعكا يبتردْن في زبد البحر الأبيض المتوسط
في أمواجه القريبة
تتنفَّض السُّميكات بينَ أقدامهن المتنفِّضة
تتمسَّح الطحالب والأصداف بالأظافر الناصعة الصغيرة
وفي دغل القصب القريب، يزفر العاشق الأبدي
أحلامه المشتعلة

عبر ثقوب شبابته البيسانية
ترتعش البيارات وكروم الزيتون بحمى الشهوة الفتية
أيها النسيم المشبع ببهار الصحراء الحاد
تريث قليلاً أيها النسيم
أترك للعاشق أسراره وللوردة نحلتها
واحمل للعالم صرخات العذارى اليافويات والعكيّات
إنهن يصرخن رعباً مما ترى أعينهن الوَسيعات:
من أعماق البحر جلجل هزيم عظيم
تصدعت الأمواج فجأةَ عن أنياب سوداء هائلة
كل ناب في حجم ثلاث مآذن
لم يكن بلالِ شامخاً هناك
ولم يكن الله أكبر
كان هناك غزاة مدججون باللؤم
والفوهات مسددة الى أفواه العذارى وعيونهن الوسيعات
الشاملات خليج العقبة ورأس الناقورة.
النوارس الذليلة تستعطي جميع السفن في البحار جميعاً
أما عذارى يافا وعكا
فاتنات الساحل والفاتنات الجليليات

فقد زغردن رعباً وانتخاءا
وزغرد رصاص الأعداء ممزقاً الأفواه الجميلة
المشرفة لتوها، على القُبل والابتسامات
وكنت أنت هناك يا بريطافور القاتل
كنت هناك بالسلندر والخوذة الحربية
كنت هناك بالحقائب الدبلوماسية
وأطقم الأسنان الاصطناعية اللامعة
أنت هناك بخرائط المنشآت العسكرية والهجوم والانسحاب
والهجوم ومصافي البترول
كنت هناك بالطرادات المثقلة بالذخائر...
وأمراض الجنس والويسكي...
أنت هناك يا بريطافور، وكانت الأغنية:

«سجل يا قرن العشرين — عمعارك فلسطين
عللي جرى وعللي صار — بين العسكر والثوار
طلعت كلاب الأثر — من عكا قبل العصر
على يركا والمكر — والرامة وشعب والمغار
وزنود الشباب السمر — بنادق، وعيون جمر

والـبـيارق بيـض وخضـــر		وسـود وحمـر ونـور ونـار
وسجـل يا قرن العشـرين		عمــعــارك فلســطيـن
عللي جرى وعــللي صـار		بين الـعسكــر والثــوار»

وكنت هناك يا بريطافور
كنت هناك بكلابك ومصفحاتك...

نئطُّ كالسعادين حول العساكر الشقر
نستجدي بسكوتاً انجليزياً...
ولما زعقتْ صفارة الانذار ونوحت
إيذاناً بالغارة النازية المسائية
صدرت أوامر الجنرال السير جون هاوارد بتش
وانطلقت رشاشات ستينغن وتوميغن
لحظر التجول وحفظ النظام..
مع رعشات أزهار البرقوق البرية
كانت طيارة الورق عائمة في أثير الساحل الغربي
أو لعله بالون برتقالي
ينقفه نحو الله، طفل من مدينة إسمها حيفـا

أو لعلها انفراجة رُعب على وجه جثة
أو لعلها الشمس
كل ما في الأمر، أنها هناك رغم كل شيء
وحين عادت السنونوّة من رحلتها الشتائية
كانت مرهقة للغاية...
قالت السنونوّة للوطن: هل من سقف ألوذُ به؟
وأعطاها الوطن برجاً لتكرير البترول.
واشتهت السنونوّة أن تروي حكايات غربتها
لكنها لم تتقن الانجليزية
فأصابها دوار شديد
ثم هوتْ الى البحر جثة هامدة
ولعلها هي الشمس التي هناك
رغم كل شيء.
حين عاد جدي من حقل الزيتون
وجدنا سنونوة تلوذ بعباءته
ـ إحكِ لنا يا جدي، ماذا حل بالست بدور؟
ـ إيه يا صغاري.. ليس الوضع على ما يرام
إن وحشاً رهيباً يوشك على افتراس الست بدور

إنه بريطافور اللعين
ملك القراصنة وسيد البحار.
كان بريطافور فتىً جميلاً يصطاد الأسماك
على سواحل جزيرة شمالية يغطيها الثلج والضباب
كاللبنة الناصعة على رغيفٍ ساخن
ذات يوم اصطاد بريطافور سمكة ميكانيكية جميلة
قالت السمكة الميكانيكية: إحتفظ بي جيداً أجعلك موسراً!
وغابت الشمس على بريطافور دون أن يعود الى كوخ والديه
وخشي السير في الليل المزدحم
بالحيتان الميكانيكية وأشباح الموتى
فآثر النوم في كهف صخري صغير على شاطىء المحيط
وبينما كان نائماً أبصرت به ربة الظلام والكوابيس
ففتنت بجماله وفتوته النابضة كبركان
واستنجدت بكل الآلهة لتجعل بريطافور من أتباعها وأزواجها
وسيطرت ربة الظلام والكوابيس على بريطافور
ونفخت في أذنيه وهو نائم
فامّسخ واحتقنت روحه بالأحلام الشريرة وشهوة البطش
وحين أفاق من نومه كان قد أخصب بالربّة القاتلة

وأولدها «بنيـون» الرهيب..

«بنيـون» نسيل بريطافور ورفيق رحلته الى بلادنا..

لم يحلم «بنيـون» إلا بأن يشاطر والده مملكته الرهيبة

حتى يشتد ساعده فيقوى على أبيه وينفرد بصولجانه الدامي

المصنوع من هيكل عظمي لأفعى هندية ماردة!

شعوب كثيرة سحقها بريطافور

وفي خمارة الحضيض

ثمل بنبيذ شرايينها

وظلت شهوته عارمة عاتية

ظلت شهوته مكتظة بأفاعي الخماسين

والمستنقعات الراكدة السامة

أما «بنيـون» فقد اشتهى أن يرث أبـاه

في كل الشعوب، وفي شعبٍ آخر.

ذات يومٍ..

كان الله يقود مركبته الملكية في جولة تفقدية

ليعد لنفسه تقريراً عن مدى فعالية الغارات الجوية

وحين انحنى فوق فلسطين

انفلتت إحدى عجلات مركبته

وانطلقت تتدحرج وحيدة نحو شفير الارض
هاربة من سيدها الى الاقمار البعيدة
تلك كانت.. الشمس الغاربة.

آنذاك هبط بريطافور وبنيون الى الشاطىء الغربي
تقدما بخطىً راعدة نحو الست بدور
كانت ترتجف هلعاً ولوعة
بين جثث لِداتها من عذارى يافـ وعكـ
قهقه بريطافور:
«ستكونين لي أيتها الجميلة!»
وَهمهمَ، بين ساقيه العملاقين، ولده الخبيث بنيــون:
«ثم تكونين لي من بعده»
وسمعه بريطافور فزجره مُعنفاً:
«كيف تجرؤ أيها الولد العاق؟!»
فتمسح به بنيــون الخبيث:
«لا بأس يا أبي وسيدي
هي لك متى تشاء
فأي جُناحٍ عليّ إذا اشتهيتها لنفسي أيضاً..

ألستُ ابنك البار يا بريطافور العظيم؟»
ـ «بلى، بلى، ولدي أنت ونصيري يوم لا نصير
وستكون هذه الحسناء طوع بنانك
يوم تصدف عنها نفسي
على أن تكونا معاً طوع بناني هذه!»
ـ «بنانك يا أبي، مشجب لجبَّة الله!»
ـ «بل هي مشجب الشيطان، وأنت عليم بذلك!»
ـ «بل هي مشجب الله والشيطان!»..

قهقه بريطافور وبِنيون فرحاً
وسحبا الست بدور من شعرها الأسود الطويل
زاحفين بها نحو السهول والقمم البعيدة
ألمدن والقرى الآهلة الآمنة
تنهار تحت قدميْ بريطافور الرهيب
وبِنيون الخبيث يكدس الغنائم
في كيس عظيم قُدَّ من جلود الآدميين

انتحبتْ الست بدور وأغربتْ في النحيب

حتى ذاب كُحل عينيها الشهلاوين في دموعها الغزيرة
وانتثرت الدُّموع السوداء على التلال والسفوح
ورثَتْ الآلهةُ الطيبة لعذاب الست بدور
فجعلت دموعَها السوداء ثماراً أبدية لشجرة الزيتون
أمّا الآلهة الشريرة
فكانت تُطلق الرقى والتعازيم
لحماية بريطافور وَنَسله بنيـون.

ألسِّت بدور.. معبودة فرسان الجبل وحلمهم الكبير
ألسِّت بدور تتمرغ في دمها تحت قدمي بريطافور
فليُسبْد العُشب على طرقات العالم
ولترتطم الصواعق بالمطارات والموانيء
ولتراجع الأمطار والرياح حساباتها القديمة..
وأنتِ أيتها الشمس
أيتها العَجلةُ الهاربة من مركبة الله
إهدئي قليلاً وانظري الى الوراء..
ملايين الأيدي مشدودة نحوك
ألا تَرين أغصان الزيتون هـذه؟

إنها أيدينا.. أيدينا القديمة المبتورة
وكلها مشدودة نحوك!

لا عليكِ أيتها الشمس!
سيّان تريّثتِ أم واصلتِ الرحيل
فها هم فرسان الجبال وحُراس السهول الضامرة
ها هم يخرجون لمنازلة بريطافور الرهيب
بحقائقهم ومناجلهم وأهازيجهم.
وأمام صرخاتهم المتفجرة كصهاريج مضغوطة
أمام زحفهم الذي يطوي حصيرة الأرض
أمام سواعدهم الفؤوس المستقتلة
سيرحل بريطافور اللعين
وستبقى الأغنية:

«سجل يا قرن العشرين عمـعـارك فلسـطين
عللي جرى وعللي صار بين العسـكر والثـوار

ســـيرة بِنيـــون

بَعْد عشرينَ قرناً وقرن

وضعتْ طفلَها «ســارةُ» الطيبة!

وبلا دعوةٍ، وبلا موعدٍ سابقٍ

طافَ بالبيتِ سِربُ الملائكةِ المعدنيّ

ـ «كيف ندعو الصبيّ؟»

ـ «كيف ندعوهُ؟ ندعوه «بِنيــون»!»

وانفجرت قُنبله

وعلى راحة الحاصد احترقتْ سُنبله..

ـ وضعتْ ســارة طفلَها

فلماذا إذنْ لم تعد طيّبه؟

ولماذا إذن ضاقت الأرضُ عن رَحْبِها؟
سألتْ «هاجرٌ» وهي ترنو إلى ربّها.
غير أن سُعاة البريد
ـ وبأمِـر الوليـد ـ
لا يؤدون خِدماتِهم بين عسفِ الأله وضعف البشرْ
ولذا، لا مفرْ
هاجَرتْ «هاجرُ»
وعلى مفرق الموت والذاكره
سألتْ «هاجر» المتعبه .
ـ أين؟ أينْ؟
وأجابَ الصدى مرتينْ:
«أيـن؟ أيـن؟»
لثةُ الطفلِ غارقة في حليب الفجيعه
فجأةً، دفع الثديَ عن شفتيه وصاح:
ـ أرجِعوا لي الوديعـه!
ـ الوديعـه؟!
ـ بعد عشرينَ قرناً وقرن؟!
قلقَ القومُ واحتكموا.. لم يكن من مفرٍ، إذن

أنتَ يا «بريطافور» الحكَم!

بين نارٍ ودمْ..

شكَّلوا لجنةً سِفرُ أحكامها النفط والسوط والقاذفه
وَلذا أشهرت خوفها الأمَّة الخائفه
فلوى شِدقه «بريطافور» الكريه
ثم صـــاح:
ـ قبل أن يستفيق الصباح
نمنح الطفلَ ـ مولودَنا ـ طقم أسنانِهِ!
وليكن طفلُنا قوةً ضاربه
فعسى أن يردَّ لَنـا شـمسنا الغاربه!

هَلِعَتْ طفلةٌ لا تجيدُ القتال
وعلى حَرَجٍ أطلقتْ صرخةً.. بعضها للألم
والذي ظلَّ: نـارٌ ودمْ!
آه آه..

آه معتصمـاه!

وتناخى الرجالُ وماتَ الرجال
فلتشدَّ الرِّحـال
طفلةٌ لا تجيد القِتَال!

قهقهَ الطفلُ «بنيــون» في مهده العسكريّ الحزين
ثمَّ صاح بضباطه الظافرين:
هكـذا.. فكرةً بعد فكره
هكـذا.. ذرَّةً بعد ذره
فَتِّشوا كل بذره
راقبوا الميتيــــن
وأعِدّوا جهاز التقاطٍ لتسجيل حُلم الجَنين
واضبطوا كلَّ صَخره
وادرسوا كل زهره
وانصبوها كمين!
مات زرعٌ كثيرٌ وضرعٌ كثيرْ
ثم كان
في بقايا الزمان
أن زيتونةً نهضت غاضبه

وعلى آلـةٍ كاتبه
سجلت كل أسرارها والنهار الذي تشتهيه
سـجلت إسمَ قاتلها وأباطيلهُ
فنَّدت كل ما يدعيـه..

ثم كـان
في بقايا المكان
عقدوا الجلسةَ الطارئه
كان ثلثُ الوفود نعالاً ملمعة تستريحُ على مقعدٍ في حديقه
كان ثلثُ الوفود بغايا يُبقِّعن بالروج والقهقهات
سختيان الذقون الحليقه
كان ثلثُ الوفود رجالَ المطافيء
واستعدت مطاراتُهم والموانيء
إستعدت ببعض المراثي وبعض الطحين
ثم ذروا رماد الحقيقه
في الجحور العيون
ورمادُ الحقيقه
طفلةٌ لا تُجيد القتال!

بعد حين

ـ رحم الله أجدادكم ـ

صاحَ صيحته فارسُ الدم والياسمين:

«هاجر» المتعبه

سئمت في المنافي ولائمها المرعبه

سئمت غوث جبريل والمافيا..

وأضافت وكالاتُ أنبائنا:

أصبحت «زمزم» بئر نفطٍ.. «وبِنيون» غرثان مستكلبٌ

إيه يا «هاجر» انتظري طائر الرعد والأخوة الباسلين

إيه، وانتظري طفلة تتقن الموت والبعث

عنقاءَ من دير ياسين، من عين جالوت، من ميسلون

طالما انتظرت.. طالما سئمت الانتظار

وقُبيل النهار

أسرجت خصرها للفتى «إسمعيل»

ومضت في الطريق الطويل..

إنها في الطريق الى بيتها

في الطريق.. وما من دليل

غير دمّ القتيل!

صاح «بِنيــون» من مهده العسكريّ:

ـ لن تعود!

ـ «هاجـر» احترقت.. مرة.. مرتين!

ـ ولغمنا الحدود!

صاح «بِنيــون» من مهده «لن تعود!»
واستعدَّ الجنود..

.. جولة ثانية

.. جولة ثالثة

كان لا بدَّ من جولة رابعة

كان لا بدَّ،

لم تنكص الريح عن طَلعِ زيتونة الذاكره

فلتحوِّم إذن ولتدوِّم نسورُ الدم الكافره..

ها هِيا «هاجرٌ» ها هِيا

سـئمت غوث جبريل والمافيا

ها هِيـــا

إنها في الطريق الى بيتها...

وعلى تلةٍ من تهامــه

أبصـرت موكبَ العائدين
طائرات التجسس U.2 ـ الحمامه
وعلى تلة من زجاج حزين
عقدوا الجلسة الطارئة..
لجَّ «بنيـون»: (فلتصلبوها! اصلبوا «هاجر» الخاطئة!)
غير أن الرياح جرت مثلما تشتهي سُفن الشمس والمُبصرين
وانقضت شُزبة الغاصبين..
كان ثلث الوفود أكفاً تلاطم مخرز أعدائها
كان ثلث الوفود وجوهاً ترمم بالنار والنور أطلال سيمائها
كان ثلث الوفود رجال المطافىء..
والفتى «إسمعيل»
يبذر النار والنور في عتمة المستحيل
ويصولُ بسيف العذابِ القديم على كل شـانيء
منشداً لرفات القتيل:

بينَ انفجـارٍ وآخـرْ
يرفُ صوتي عليكِ
ويومَ ترجعُ «هاجـرْ»
أمي ـ أعود إليكِ

وبين ليلٍ وليل
وقت قصير لغفوه
لأستريح بظلي
على هنائس زهوه
ويوم ترجع «هاجرْ»
أمي ـ أعودُ إليك!

الرياحُ جرت
والرياح جرت مثلما تشتهي سُفن الشمس والمبصرين
وانقضت، إنقضت شَزبة الغاصبين
فاخرج الآن «بنيـون»! وجهاً لوجهٍ
تنفضَ طير الصباحِ .. استوى السَّمت والسَّمت..
والدُك الشيخُ منكفيءٌ غابتِ الشمسُ عن ملكه..
طالما أقعَمَ الحالمين بخبزٍ ووردٍ..
وها هوذا، أقعِمَ اليومَ..
فاخرج إذن..
أخرج الآن، «بنيـون» وجهاً لوجه!!..
عندما جاءه نبأ الشمسِ والنبع والعاصفه..
كان «بنيـون» ما زال في مهده العسكريّ..

شـابَ طفل الدِّناصور في مهده..
طقمُ أسنانه المعدنيّ..
ـ آه ياليل ياعين ـ لم يُجْدِهِ!..
ويُضيف الرواة
أن «بنيـون» لمِ يعترف بطقوس الحياة
ويُضيفُ الرواة:
سـاءه أن يرى «هاجـر» العائده
عبر أحلامهِ البائده
فانتضى سيف والده بريطافور
ومع الفجر، أغمده في دجى صدرهِ
مطلقاً صرخة مارده
وارتمى.. جثة هامده!

سيرة جليات

وبعد أربعين يومْ
ظلَّ هناكَ واقفاً
ساقاه نخلتان
وفوقَ رأسهِ الجميل
كوفيَّةٌ صارتْ تُسمَّى الغيمْ

واخترقتْ قامَتَه أرتالُ دبَّابات
واخترقت جبينَه أسراب طيارات
لكنه ظل هناك واقفاً

وصاح:
عن أيِّ مقلاعٍ تُثرثرون؟
وأيَّ قِزْمٍ خائرِ العزمِ تُمجِّدون؟
يا أيها الغُزاة
منذا الذي قد مات؟
ها أنذا حيّ أنا حيّ أنا جليات!
حيٌّ أنا يا أيها الغزاة..

وبعد إذ جلجلتْ في كمائن الأعداء
صيحةُ الحياة والمقاومة التي أطلقها
التفت جليات الى رفاقه في السلاح وقال:
«كل عرار الأرض في هذا الدم المهراق
وكم عشية لنا
بين أصيل الدم والسَّحر
فليسخر القدر
يا أيها الرفاق
وليسخر القدر،
عمّا قريبٍ يهطل المطر..»

آنذاك
كان نداء حبيبته قد قطع الجبال والصحاري والمحيطات
وارتطم النداء الحار بجبين جليات
كعصفور يرتطم بزجاج سيارةٍ مسرعه
فزفرت أعماقه البركانيّة:
قبل أن أراك يا حبيبتي
أكون قد عانقتك،
قبل أن أعانقك يا حبيبتي
أكون قد قبّلتك
قبل أن أقبلك يا حبيبتي
نكون قد تكاثرنا!

أربعين قرناً بلياليها
ظلَّ جُليات واقفاً هناك
بينما كان بريطافور وبنيــون يحشدان لقهره.

لم يسند ظهر جليات سوى قومه والغراب الطيِّب المسالم
وزهور البرية والغزلان والينابيع

أما بريطافور وبنيـون فقد التفتْ من حولهما شعوب كثيرة
وكانت في معسكرهما الحمامة الحاقدة
الخنازير البريَة
والذئاب والثعالب.
ذات يوم شعر جليات بجوعٍ شديد
وكان حصار الأعداء محكَماً
فأنقض عليهم وأمسكتْ قبضتاه بخنزيرين بريّين
سَفَدَ الخنزيرين ببرقَةٍ هائلة
شواهما على الشمس
وأطعَمَنا وأكل
ولما رأى الأعداء ما فعله جليات
أخذ الرُّعب بجوارحهم..
سمعنا اصطكاك عظامهم تحت جلودهم
فحزنا عليهم حُزناً شديداً.
ذات يوم، قالت له زوجته:
قم يا جليات وانزل الى السوق واشترِ لنا خُضاراً..
فقام جليات وحمل سلته ونزل الى السوق
كان في السوق خضار كثيرة

فاشترى جليات سبعاً وعشرين قنبلة يدوية من طراز مللز
واشترى سبعة وعشرين لغماً مضاداً للآليات
واشترى سبعاً وعشرين عبوة ناسفة..
طبخت زوجه طعاماً شهياً
فأكلنا ثم شربنا من نهر الاردن دماً زلالاً.

ذات يوم، وفي غمرة المعركة
أصيبَ جليات بجرح خطير
وحين تكمّشت أصابعه المتشنجة
على حفنة من التراب والحصى
سمع صوتاً ناغراً مع الدم:
أطبق العشقُ عَليّ
ومحاني في يديهْ

ثم أعطاني يديّ
ثم أطبقت عليه..
وقالت حفنة التراب والحصى:
ـ لا تستحضر الحقيقة يا جليات

إجهرْ، فقط، إجهرْ
بأحلامك وكوابيسك
وستنتشر الحقيقة كغبار الطلع
مع الرياح وأشعة الشمس..
آنذاك انفجر جليات مغنياً:
أنا الدولةُ العظمى
من لا يصدقني فليرجمني بصواريخه الذريّة
سألتقطها واحداً واحداً
وأعيدها إلى قواعدها سالمة
محزومة بشريط من الحرير الشامي.
ومن ثم، أقعد على سطح الأممِ المتَّحدة مغنياً:
أنــا الدولةُ العظمى
أنــا.. الدولة.. العظمى!

في ساعات الليل المتأخرة
فتح جليات صفحة جديدة ودوَّن في يومياته:
«دفعت لسائق التكسي بخشيشه كاملاً
ثم وهبتُه الأجرة وطرحت تحية المساء

كنت أريد شيئاً واضحاً ومحدداً
أريد صعود الدرج إلى غرفة نومي
حين صعدت الدرجة الأولى
فوجئت بالطقس الغريب
جابهتني الحقيقة كاملة
ها أنذا على كوكب آخر، ولا غرفة لنومي
ليس هو القمر ولا بلوتو
لكنه كوكب آخر بالتأكيد
لا بدّ لي من صعود الدرجة التالية
إلى غرفة نومي
إنني متعب يا حبيبتي
وأشتهي أن أنام!

في ساعات الصباح الباكرة
فتح جليات صفحة جديدة
ودوّن في يومياته:
صحّ النوم!
يستقيظ العالم على صرخاتي

وأنا أهزُّ الشمس من كتفيها:
«أيتها المجنونة! كيف جرؤت؟»
ينفعل العالم أو لا ينفعل
لكنه يردد مثل كورس إغريقي:
«أيتها المجنونة! كيف جرؤتِ؟»
على ألحان الباسادوبلي
المفعمة بالعطر الساخن
أمسك أطلس المدجن من قرنيه
وبقدمي الصغيرة المتألمة بصمت
في حذائها الصينيّ
أركل الكرة الأرضيّة
من طرف الملعب الى طرفه
ينفعل العالم أو لا ينفعل
لكنه يهتف لي مثل كورس إغريقي:
«جو..و..ل!»

كان جليات يقضم تفاحة موته اللذيذة
ويقذف الثعالب بحجارة إيمانه

غير أن وحوش البرية
شددت هجومها عليه وأحكمت وثاقه
ومن ساحة السجن الصغيرة كتب الى حبيبته:
جسدي أسرع من صوتي
تلك هي المشكلة الصعبه
لكني أصنع من أكبر قبَّه
أصغر حبّه
مستبقاً موتي
فتهون المشكلة الصعبه!

وحدَّث جليات رفيقه السجين فقال:
في اليوبيل الفضي لموتي
وجدتني منطلقاً كالسهم
من الأرض الصوانية
الى الغصن العالي
الى التفاحة الأخيرة
لم يكن لي بد من ذلك
فالتفاحة لم تسقط

والجاذبية شديدة يا رفيقي!
في اليوبيل الفضي لموتي
كان عليَّ أن أغتسل
وإذا بي أخرج من حمام الدم صائحاً:
«وجدتُني! وجدتُني!»

كان أن التقى جليات بامرىء القيس في بادية الشام
أوقفه غاضباً وصاح به:
«لمن أنت ملتجىءٌ يا آمرأ القيس
هل تستجير بنار الأجانب؟
أقصر لُعنتَ،
ورمصاءُ أهلك بردٌ عليك انتبهْ
يا آمرأ القيس
ما من مجير سواي، وإنّي مُجيرُكْ
فهيا نُحكِّم هذا البعير
ترجَّل وأرخِ الرسانَ، وسوف ترى،
يستدير على عقبيهِ الى حيِّنا
يستدير بعيرُكْ

وإني مُجيرك!»
كان جليات يقضم تفاحة موته اللذيذة
ويقذف الثعالب بحجارة إيمانه
بيد أن وحوش البريه
شددت هجومها عليه وأحكمت وثاقه
وفي غرفة التحقيق
جرى حوار قاسٍ بين جليات وضابط المخابرات:
قال ضابط المخابرات:
ـ هل أكلت أمس؟
ردَّ جليات:
ـ تسليتُ بدمي!
قال ضابط المخابرات:
ـ هل بكيت اليوم؟
ردَّ جليات:
ـ تسليتم بدمي!
قال ضابط المخابرات:
ـ هل ستضحك غداً؟
ردَّ جليات:

ـ لن أترككم تتسلون بدمكم

سأعلمكم تحويل الملاجىء الحربيّة الى نوادٍ ليليّه!

وسأعزف على قيثارتي حتى تنهدم جميع أسوار العالم!

وسأردُّ للحب اعتباره!

قال ضابط المخابرات:

ـ لن أطلق سراحك!

ردَّ جليات:

ـ لن تطلق سراحي لأنك لن تعتقلني..

أنا الحرية!!

ومن القدس

كتب جليات الى رفاقه:

أقيمُ هنـــا

مع النخبة الممتازة من الأحـزان

مع نشرات الأخبار

والقوائم الجديدة بأسماء الشهداء

أقيمُ هنـــا

مع الهواء المختنق بالغازات السامّة

لكنني أشجعه.

صبراً أيها الهواء
صبراً يا رفيقي وابن جلدتي
إرفع عينيك قليلاً وستراهم على حقيقتهم
ملوك صهيون والعجم والروم
يتسكعون حول مائدتي
ويرتجفون هلعاً قبالة مشاعلي
إرفع عينيك أيها الهواء السجين
وسترى إبطي
قنطرةً للشمس والمجموعة الشمسيّة
صبراً أيها الهواء الحميم الذي يفهم لغتي
ستقبل علينا الشعوب فاّحمل صرختي
تعالي الى قلبي أيتها الشعوب
قلبي هذا المكتنز بالحب مثل رمانه
قلبي هذا المقيم على أسوار القدس
مع النخبة الممتازة من الأحزان!

ثم كانت الحرب الكونية الأخيرة!
على سلَّم من أقفاص صدور القتلى

تسلق جليات جدران الأمم المتحدة
على السطح المبقع بزيوت الهليكوبتر وسلح الطيور
وقف جليات عارياً
والى جانبه صندوق كوكاكولا
ثم حفر بئراً للنفط
وسرعان ما أصبحت زجاجات الكوكاكولا الفارغة
زجاجات مولوتوف محكمة الصنع.
تجمعت وفود العالم حول برج الزجاج
اكتمل الجزر وانفضحت عوراتهم تماماً
أطلقت القدس كلمة السر
وانهال جليات على المندوبين بقنابله
(القنبلة الأولى)
سقطت أعضاؤهم التناسليّه
(القنبلة الثانية)
تطايرت كلسونات نسائهم
(القنبلة الثالثة)
اجتاحت أرحامهن تيارات الرياح والأنهار
وارتعشن بلذة الخلق...

كان الموت وكانت الولادة
وكان نسل لا يعرف القنابل..
ثم صاح جليات بوفود الأرض:
اليوم أكملتُ لكم دينكم
أما القنبلة الأخيرةُ، فلي
لي أنا المتماسك بصمغ اللهفة
أنا المتماسك
على انفجارات لا تُحصى!..
(ثم كان لجليات نسلٌ لا يعرف القنابل!
وكان للعالم نسل لا يعرف القنابل!)

الصحـــراء

(الى أخي الكبير أحمد بن بلا، ذكرى لقاء الغربة بالغربة في حضرة الشهيد الحبيب، الظاهر الخفيّ، أبي ذرٍّ الغفاري)

هدوءاً
سيكتملُ البدرُ عمّـا قريبٍ
سيدنو رهيباً بطيئاً
سأصرخُ رُعبا
وأمسخُ ذئبا
هدوءاً

على سُنَّةَ الله واللاتِ والأنبياء
تدبُّ العقاربُ
منتصف الليل
تسقطُ في الشَّرَكِ الليلكيِّ القواربُ
يُهرع سكان ضاحية الموتِ
صوبَ رنين النواقيس
تنفجرُ الصرخاتُ الرهيبةُ:
«زلزلت الأرضُ زلزالها»
«ساعةَ الصفرِ»
«يا جلبة الحشرِ»
«قايينُ»
«قايينُ»
«قا ا ا ا يـ يـ يـ ـن!»
تكتشفُ الروحُ أهواها!

هدوءاً
يجيءُ عواء الذئاب البعيدةِ
غمغمةً في الضبابِ الثقيلِ

ويندلعُ البدرُ
يبهرُ عينيَّ
يعلو ويصخبُ في غابة الروح
قرعُ الطبولِ
وأصرُخُ رُعبا
وأُمسَخُ ذئبا..

إليَّ بإكسيركِ المرِّ
لم يبقَ في حُقٍّ كاهنك الميتِ
غير انكسارِ الأشعَّةِ
بين زجاج التعلُّلِ
والشفةِ اليابسه
إليَّ بإكسيركِ المرِّ
هذا أوانُ انتشاري
على ضُمرةِ الموتِ
هذا أوانُ اقتداري
عليهم
وهذا أوان انتصاري

عليّ
أنا فارسُ الأَمل المشرقيّ
اْرفعي حُجُبَ الغيبِ
هيّا انهضي
وامنحيني أمام السماوات والأرضِ
جرعَتك اليائسه!

تعبتُ حبيبةَ روحي
وأتعبَ مهدي ضريحي
ولا النارُ ناري
ولا الريحُ ريحي
تعبتُ
وبيني وبين التقاويم نهران
نهرُ الدموع
ونهرُ الدماء
وبيني وبين الدموع
وجوهٌ من الشمع والزعفران
وبيني وبين الدماء الزمان

وما من مكانٍ
أما من مكان؟
وبيني وبيني
تدوخُ الحرائقُ
في رقصةِ الريح
يعتمر العازفون السكارى بأحزانهم
خُوذَ الحربِ
يا امرأةَ الدم والدمعِ
هذا زفافكِ
(يزعجُ جيراننا الليلةَ الفرحُ المشرقي
فمن بعض عاداتنا
أننا نطلق النار في العرسِ
ننذرُ أبناءَنا الزرقَ للقدسِ
من عادة الأنبياءِ
اكتناهُ النجوم
ومن عادةِ الشهداءِ
الوجوم..
ولسنا سوى بشرٍ

من ترابٍ ودمعٍ
نزغردُ مثل المجانين
نبكي ونرقصُ
نبكي ونرقصُ
لو صاحت امرأةٌ تستغيث
لصحنا «عليهم!»
ونجهلُ مَنْ هم
وصحنا «عليهم»
ونعرفُ مَنْ هم..)

لماذا استغثتِ
لماذا استغثتِ
وعُرسكِ في عزِّهِ
والرجالُ سكارى
لماذا استغثتِ
ورِجْلا عريسكِ في لجن الماءِ
بدلتُهُ فوق مشجبها بعدُ
قولي،

لماذا استغثتِ؟
ترى، راعكِ البدرُ
أنذركِ الخضرُ
قولي،
لماذا تناثرتِ من أوَّل العاصفة

مخلّفةً في فضاءِ الفجيعةِ
أصداءَ تمتمةٍ واجفة؟

لكِ المجدُ
سيِّدةَ القحطِ
كيف افتقرنا
لكِ المجدُ
سيِّدةَ النفطِ
كيف اغتنينا.
وأنسى وأذكرُ كيف ابتدأنا
وأنسى وأذكرُ
أين انتهينا!

تحارُ الملايينُ
ما بين سرِّكِ، طوراً،
وسرِّ البحار (القصيّةِ في قُربها)
تحارُ الملايينُ فيكِ
وفي حبِّها
وفي رُعبها
وتحفى الملايينُ، تعرى، تجوع
وقلبي يجوع
وروحي يجوع
ألا فاغسلي بدني
واغسلي كفني
بدموع الدموع..

إذن، هكذا
أستردُّ يديَّ قليلا
فأجرع كأساً على عَجَلٍ
لا سبيل إلى السُّكرِ
في زمنٍ جاحظ القلبِ

أنشوطتي يقظتي
يقظتي علّتي
(يا حبيبة قلبي وروحي
تعبتُ
استردّي يديَّ قليلا
وقلبي قليلا
وروحي قليلا..)

إذن هكذا،
سرَّح الله كلَّ الملائكة
استرجَعَ الأنبياءُ تعاليمهم
إذن،
شهداءُ القصائدِ
لا يبرحون أقاليمهم
إذن،
جُثتي أجملُ الأُغنيات!
وما بينَ موتي وموتي
بلادٌ بلا آخرٍ

أبدٌ شاسعُ
إذن،
رائعٌ قدري رائعٌ!

تناديكِ ناري
ونوري ندائي
أناديكِ مختنقاً بالبكاءِ
أناديكِ من حمأ الكافرين
وفي ظمأ الأتقياءِ
كبيراً على الذُلِّ
حيّاً ومَيْتاً
ذليلاً على الكبرياءِ
خذي بيديَّ
فقيراً
ضريراً
أجوس رحابَ هجيركْ
قودي خُطايَ
وحيداً

بعيداً
أهيمُ على زمهريركْ
شدّي وثاقي
إلى أبد الدهرِ
أو فاعتقيني
إلى أبد الدهرِ
خاصرتي أثخنتها البروق
فمي (جرسُ الله والخلق)
تشرخُه الصلوات المملَّةُ
بين هشيم الغروبِ
وبين سديم الشروق
صحراءُ!
بُحَّتْ ذراعُ الضُّراعه
وما من «غفارٍ»
وما من «قُضاعه»
صحراءُ
هل تمنحين الصدى صخرةً؟
وهل توصدينَ المدى مرَّةً؟

وهل تُنعمين عليَّ
بقرنِ غزال
ألفُّ عليهِ وشاحَ اليقينِ
وأُطلقُه صرخةً في الخيالْ
تجوبُ البواديَ تلو البوادي
وتطوي السهولَ
وتلوي الجبالْ
ألا اعتقيني
ولا تقتليني
هدوءاً..
أُناديك
محترقاً كندائي
أُناديك
مختنقاً بالبكاءِ

هنا مفرقُ العُقم والنسلِ
نحن ظهرنا هنا واختفينا
أتيتُ مندّىً بدمعِ الأمومةِ

منشطراً

بين ليل الرضا ونهار الكوارثِ

أنتِ اكتفيتِ بما ينطقُ الجرحُ

سرّاً أتيتِ

مجلّلةً بصدى الياسمين

وشيءٌ من الغسقِ القرمزي

يوشّح عينيكِ

شيءٌ يبارك حزن المراثي،

وشيءٌ يبارك موتي علانيةً

ويبارك ســـرَّ انبعاثي..

لكِ المجدُ

نارَ الأيامى

لكِ المجدُ

حزنَ اليتامى

لكِ المجدُ

عزفَ ارتطام النيازك بالأرضِ

سخطَ البراكين

عارَ الهزائمْ
لكِ المجدُ
خزيَ الأسير
وغارَ المقاومْ
ويا زهرة الحب والموتِ
يا امرأةَ الدمّ والدمعِ
يا هرَّةً
في ليالي التشرد والبردِ
داهمها الجوع
وافترستْ حزن أولادها
بكيتُ لجوعي وجوعك
أية عاصمةٍ سمعت صيحتي
وهْيَ تغفي على فخذِ قوّادِها؟
وأية حاضرةٍ
حفلتْ بأذان المذابحِ ؟
أي المعابد يعمُرُهُ مؤمنان؟
وأي المواقع يحرسهُ فارسان؟
ومنذا يشيّع قلب المغنّي المقاتل

غير الدخان

الدخان

الدخان؟

لماذا استغثتِ؟
أجيبي.. لماذا استغثتِ؟
لماذا؟
ونحنُ سكارى
نغطُّ دخاناً
ونصحو غبارا!

هتفتُ من الأسرِ
يا امرأة السبيِ
دلَّت عليَّ
حنوط الحجارةِ والطميِ والثمر الفجِّ
كفّاي في الأوجِ
رِجلاي في القيدِ
مارستُ في ظلِّ أنشوطتي

كلُّ طقسٍ مُتاح
وباركتُ بالزيتِ والطيبِ
كلَّ السجون
وكلَّ الأغاني
وكلَّ الجراح
وكم من يدٍ صافحتْها يدي
فخانتْ يدي
وكم موعدٍ
سرقَ النار والنورَ
من موعدي!
أحبكِ
عقلاً وقلبا
أحبكِ
مَحْلاً وخصبا
أحبكِ
رملاً وطلحاً وعشبا
أحبكِ
لكن هدوءاً

هدوءاً

دمي في الشوارع

يَصهل عبر «التلكس» الصحافيِّ

موتي المثابرُ

تنهش لحمي المنابرُ

تجهل قبري المقابرُ

هذا دمي في الشوارع

يشهرني رايةً للزوابع

هذا دمي يستغيث

أحبكِ

لكن هدوءاً

هدوءاً..

على طرقات المنافي

أغانٍ تموت بلا منشدين

وصدري

زنزانة تتناسلُ

بين الخيام وبين السجون

ولا سُؤرةُ الكأسِ
لا سَوْرةُ الفأسِ
لا دعوةُ الوالِدينِ
ولا أنتِ لي..
(أنت لي)
وسامٌ على ياقة الفاجعه
تقمَّصني عريك المستباحُ
على القارعه
وياما تناسخَ وجهي ووجهكِ
خلفَ هشيم الألوهةِ
في زمن المحل والمعصيات
ومن خلف ظهريَ
ياما تلمَّظكِ الخطباء
وها أنتِ لي
وياما تجشَّأكِ الشعراء
وها أنتِ لي
وياما تشظَّيتِ
بين الحناجر والصوتِ

ها أنتِ
جوعاً تموتين..
(شـكراً
سيشبعُ من خبز مأتمكِ المقرئون
وتُكسى بأكفانكِ النادبات..)

أُصلّي وأكفر بآسمك
وأنذرُ جسمي لجسمك
فلا تطرديني إلى البحرِ
حسبيَ كفّارةً
ما أُعاني على برِّ سخطكِ
عاريةً بين نارين
ملدوغةً بين جُحرين
حافيةً فوق جمر الأكاذيب
أعرف حزنكِ
مهجورةً في ظلال الملايين
مبهورةً بالطنينِ
ممزقةً بالشفاه السكاكينِ

ألمس حقد المساكين
يا أمّ طفلي وأُمّي
أُصلي وأكفر بٱسمك
وأملأ جسمي بجسمك
وإن كان لا بدّ من طعنةٍ
فاذكري لحم خاصرتي الناحله
مساءً ألاقيكِ
ما بين زيتونة الذكريات
وتفّاحة الشهوة الآفله
مساءً
أجيئُكِ
عريانَ
إلاَّ من العبق الارتجاليّ
آتيكِ
مغتسلاً بحليب الأمومةِ
فانتظري لحم خاصرتي الناحله
وإن كان لا بدّ من طعنةٍ
فلتكُن طعنةً قاتله!

أُجاهرُ روحكِ
أيتها التَّمْرةُ المعضله
أُجاهرُ آياتك المهمَله
تبعتُ الرسول ومَنْ أرسله
أطعتُ أُولي الأمرِ
في الخيرِ
والشرِّ
في البردِ
والحرِّ
قالوا: تُبايعُ شوكتنا سنبله
وقلتُ: أبايعُ شوكتكم سنبله
وقلتُ: سمائي بساطير حُرّاسكم
يا أُولي الأمرِ
في السرِّ والجهرِ
قلتُ: يصير إلهي الاذاعة والقنبله
تبعتُ وبعتُ
عبدتُ وبدتُ
أُسرتُ وسرتُ

بعدتُ وعُدتُ

ومتُّ ومتُّ

وعدتُ بُعثتُ

هدوءاً

هدوءاً

سيكتمل البدرُ عمّا قريبٍ

سيدنو

رهيباً بطيئاً

سأصرخُ رعبا

وأُمسخُ ذئبا

هدوءاً..

قليلٌ من الملحِ والخبزِ يكفي

لأسمحَ للدمعِ

كي يتفجَّرَ من بئره الارتوازيَّةِ

الملحُ والخبزُ

داءُ اليتامى

وحزن الندامى..

ويا لوعةَ الحبِّ
يا جذوة القلب
ملحي رمادي
وخبزيَ
تغريبتي في بلادي!

أَتذكرُ عصفورة الفجرِ
أُغنيةَ السنديان؟
أَيذكر بعضَ الرُعاة القدامى
طراوة نعناعة النبعِ
في أوَّل الليلِ
هل ظلَّ بين الخلائقِ
مَن يذكر الولد الأرجوانيَّ
تحت القناطرِ
والبنتَ
في ثوبها الليلكيِّ
اسمعوني جميعاً
جميعاً

أنا أُعلن الآن تكفيركم
في شرائع أحفادكم كلها
ولا شأن لي عند أسلافكم كلهم
لماذا أكون فريسةَ أُكذوبةٍ
دحرجتها على ثلج موتي الأساطيرُ
تنكث عهدي الدساتيرُ
تهرسُ لحمي البساطيرُ
قولوا.. جميعاً.. لماذا؟

طحالبُ مرثية الزرعِ والضَّرعِ
تنمو على صخرةِ القلبِ
في الجوعِ والرعبِ
بعضُ المراسيم يكفي
لأسمحَ للدمعِ
كي يتفجَّرَ كيفَ يشاءُ
ويكفي قليلٌ من الملحِ والخبزِ
كي لا تجفَّ الدماءُ.
ملوكٌ عليكِ جواسيس صهيونَ

من عورة الشامِ
حتى جذام نواكشوطَ
ألمُلك مُلكي
لكنَّهم باغتوا طفلةً
لعِبتْ وحدها في البراري
ودسّوا بداديق زوجاتهم
لاغتيال الغُلامِ المبكِّرِ
من قُبلةِ الوالدين الى المدرسة.
الا لعنةَ الله واللاتِ
ماذا أباري؟
وماذا أداري؟
غبارُ الخيانات غطّى الشبابيك
طائرةٌ من جميع الجهات
أغارت عليها مرارا
وعادت اليها مرارا
وقربَ سياج الحديقةِ
جثّةُ سيدةٍ
قصفتها الصواريخُ

مرتْ عليها التواريخُ
لم يعرفوها
وكم عرفوها
وكم قصفوها
ليعطوا القبورَ الجماعية
اليومَ
معنى الأمومة
وحتى تدين الحكومة منهم
حكومة!
فشكراً.. وشكراً
وجواً.. وبحراً
وخيراً.. وشراً
وشكراً جزيلا
على تعب التعزية
على أسفٍ لم يعشهُ المغني
وعاش طويلاً مع الأغنية
وشكراً جزيلا
ندرنا كثيراً

لنجزى قليلا
وجئنا رعيلاً رعيلا
لنلثمَ أردانَ أثوابهم
وعدنا
قتيلاً.. قتيلا
نزلزل ما أضمروا خلفَ أبوابهم
ونكتسح المستحيلا
الى جنّة التّبرِ والكُحلِ
شقراءَ لوّحها الحرُّ
سمراء
تختصرُ الضوءَ والفيءَ
صحراء
فاحت حليباً
وباحتْ نخيلا..

لأطفالك الضحكةُ الصافية
لأزواجكِ التمرُ والماءُ والعافية
لغزلانك الكلأ المشتهى

لكِ البدءُ والمنتهى
ولي منكِ ما يحلم الحالمون
وما تخلقُ الرغبةُ العاتية
ولي منكِ عنتُ المنافي
وسخطُ السوافي
وعسفُ السجون
ولي كلّ أيامك الآتية
ولي أنتِ صحراءُ
جسماً وروحا
وأفقاً عميقاً
ترسَّم أفقاً فسيحا..

مباركةٌ أنتِ
يا أوَّل الحبِّ
صحراءُ
يا آخر الموتِ
صحراءُ
من قايضَ الماء بالنار؟

مَن جرَّدَ السرَّ من قُدسِهِ؟
ومن جرَّدَ القدسَ من سرِّها؟
مباركةٌ أنتِ
ردّي لكأسي فمي
وخلّي دمي
يعتّق مآسيهِ في خمرِها!

دخانٌ
على شرفاتِ السماء القريبه
لعلَّ إلهاً يرى
لعلَّ ملائكةً شاهدتْ ما جرى
سماءٌ!
أما من عجيبه؟
شعوبٌ تنامُ
طوابيرَ أسرى وقتلى
وتصحو
جماهير قتلى وأسرى
هنا يقذفُ «العالم الحرُّ»

كيس النفاياتِ
هذا ملاكُ الجريمةِ
آتٍ على متنِ «حاملة الطائراتِ»
احفري خندقاً للضحايا
وقومي نلمَّ الشظايا
لنصنَعَ منها
تماثيل حريّة المافيا والبنوك
وقومي اْصرخي
لعلَّ صراخ اْغتصاب الصبايا
يهزُّ رخامَ الملوك
ويوقف هذا المزاد المهين
ويغلق سوق النخاسة
لعلَّ صراخ اْغتصاب الصبايا
يهزُّ ثريات قصر الرئاسة
ويشرخُ عاج التكايا..
دخانٌ؟
أم الآلُ في مُطلقِ البيدِ
ما من توابيت

ما من شموعٍ
وما من دموعٍ
وما من جنازه
تموتين كيفَ تشائينَ أنتِ
وتحيينَ كيف تشائينَ أنتِ
وأقطعُ وحدي المفازه
هدوءاً.

لأنك صاعقةٌ حاصروكِ
أرادوكِ مانعةً للصواعقْ
وكم ذبحوا نخوةً من بنيكِ
وأشداقُهم تنتخي وتدردبُ:
«نحن أخوك ونحنُ أبوكِ
وأمُّكِ نحنُ
ونحن بنوكِ»
وباسمكِ،
كم أعدموا في ميادينهم
صَبَوات البيارق..

ألا استنفري
وانفري
واظهري
سنابل ملء مروج الحرائق
وضجّي
وشجي رخامَ الردى
وكوني صِغاراً
وكوني حدائق
وكوني شهيدا
تناسَلَ ورداً وخبزاً وعيدا
وبيتاً جديدا
وكوني فؤوساً
وكوني مطارقْ
وكوني جنوداً
وكوني خنادقْ
وأعطي المغاربَ
ضوءَ المشارقْ!

خذي بيدي وانهضي
لا يزالُ الطريقُ طويلا
ومن سارَ هذا الطريق الطويلَ
يموتُ طويلا
وقبل النهايةِ لا يستريحُ
خذي بيدي وانهضي من عذابكْ
على التلِّ ديكٌ يصيحُ
وفي السفحِ
ينخو القتيلُ القتيلا
وقلبي الجريحُ
أضمّدهُ بنقابكْ
وأحفرُ لي خندقاً في رحابكْ.

تراكم حولي الرَّدى
وسدَّ المدى
وظلَّ مداكِ الفسيحُ
وديكٌ يصيحُ
على التلِّ

ظلّت سماءٌ وأرضٌ وريحُ
وديكٌ يصيحُ..

بأيَّةِ فتوى
يعير الرعاةُ
نواقيس قطعانهم
للذئاب؟
بأيَّةِ فتوى
يصير الرصاصُ أصابعْ
تدوّن تاريخها في الشوارعْ
وتمحو جنازير دبّابةٍ
وردةً
رسمتها الطفولةُ
في دفترٍ من تراب؟
بأيَّةِ فتوى
يكونُ الحضورُ الغياب؟

لكِ الألقُ الأوّليّ المقدسُ

تقرأكِ الفاتحه

ويحلمكِ الحُلمُ

صحراء

غامضة.. واضحه..

وأعلمُ أن القياصرةَ انتظروكِ طويلا

وأنَّ الاكاسرة استدرجوكِ طويلا

ولم تمنحي مجدَهم ناظريكِ

وأعلمُ أن السلاطينَ حجّوا اليكِ

وماتوا عليكِ

وأعلمُ أن عصوراً من العاشقين

انتهتْ عند حنّاءِ قلبي على راحتيكِ.

تنازعك الحلمُ بالحُلمِ

صحراء

خضراء؟

بيضاء؟

سوداء؟

حمراء؟

يغبطك اللونُ

زيتونةً في المُحال
وأُنشودةً شرقت بدم البرتقال.

يقولُ السرابُ: اتبعوني!
يقولُ الكثيبُ: اذكروني!
تقول السوافي:
أنا والنخيل
جنونُ القوافي
وأهزوجة المستحيل!
أقولُ:
أحبك!
صحراء
ردّي خماسين أمسي
أموتُ من البردِ
في ليلِ قدسي
أموتُ من الوجدِ
قولي،
أما حانَ ميعادُ عرسي؟

هو البدرُ
يُنشبُ شهوته البكرَ في اللحمِ
(تهوي القذائفُ)
يهوي من الغيمِ
صلباً رهيف الغريزةِ
يغتصبُ الارضَ
(تهوي القذائفُ)
يخفشُ في الدمً
لا تردعيه
ولا تطرديه
هو البدرُ
طفلٌ بلا أبوينِ
جميلٌ وقاسٍ وحرٌّ
ولونٌ أخيرٌ بجفنيْ قتيلٍ يمرُّ
هو البدرُ
في ضوئه النرجسيِّ
أرى أعيناً من جميع الشعوبِ
تحدِّقُ صوبي

وتدمعُ حزناً
على جرحٍ روحي وقلبي
أرى أذرعاً في الضبابْ
تحاول جذبي
الى مضجعٍ يرتجيني
ولا أرتضيه
وأسمع حولي عواء الذئابْ
وأسمع مرثيتي النائية
تنوحُ بها طفلةٌ عند بئرٍ
وتصدى على شرفةٍ قانية.
هو البدرُ
شكراً، أكفَّ الصحابْ
وشكراً، مراثي الصبايا
وعفواً دموع الشبابْ
هو البدرُ
يمنحني منزلاً دون بابْ
وكل قدومٍ رحيلٌ
وكلُّ رحيلٍ إيابْ..

ألا ليتَ عينيّ جحرانِ
لا ما أراهُ
ولا من يراني
ألا ليت لي «ربذةً» في ضياعي
ويا ليتَ لي «ربذةً» من هواني
ألا ليتَ لا ليتَ لا ليتَ
غنَّيتَ
صلَّيتَ
مَن كنتَ؟
مَن أنتَ؟
يا شهوةَ الصلِّ للقيظِ
يا لهفةَ النصلِ للغيظِ
خُذ جلدَ طفلٍ ذبيح
ودوِّن عليه كتابَ الفجيعةِ والعنفوانِ
ويا ليتَ عينيَّ جحرانِ
لا ما أراهُ
ولا مَنْ يراني..

غزالٌ، تُجفِّلهُ صَلْيَةُ أخطَأتْهُ
وكم مرةٍ مَزّقَتْ قلبه طلقةٌ
يا غزالِي الكحيلَ النحيلَ، سلاما
سلاماً، من المدنفِ الخائفِ
على قلبكَ الواجفِ.

غزالٌ على رامةٍ
أيُّ صمتٍ مخيفٍ
عجايا من الملحِ والطَّلْحِ
أينَ فنونُ الصباباتِ؟
أينَ جنونُ الرباباتِ؟
أين المهابيجُ؟
رملٌ يموجُ
سوافٍ تهيجُ
وأينَ الخيولُ؟
الطلولُ؟
الهوادجُ؟
أين الفيالقُ؟

أين البيارقُ؟
(عُرْبٌ ورومٌ وفُرسُ)
وأينَ اللواعجُ؟
ليلى وقيسُ؟
وأينَ القوافلُ
أينَ القبائلُ
بكرٌ، تميمٌ وعبسُ؟
وأين سحيمٌ وأوسُ؟
وهندٌ ودَعْدُ •
وأين الحجازُ ونجدُ؟
غزالي على رامتي
أين وجهي؟!

هبيني المدى المستحيلا
وأصغي قليلا..
تقاسيمُ شبّابةٍ في فضاء المواجعِ
ليلى تسوقُ الخرافَ
الى واحةِ الروحِ

(يا قيسُ خذني
من القحطِ والنفطِ خذني
الى مطرحٍ آهلٍ بالافاعي
ويا قيسُ خذني الى سُرَّتي
إن رَحْمي تئنُّ
ولحمي يطنُّ
وروحي يضيعُ وراء الضياعِ ..)
وتجهشُ في شَبَق الرملِ كفٌّ
وينبضُ دفٌّ
وتبكي الربابات
(يا أهل قيسٍ وليلى
تجيئون رملاً
وتمضون رملا..)
ويَتْعبُ روح المغنّي،
ويغفو..

«أمِن آلِ نُعْمٍ؟»
سعاةُ البريد يمرون في كل صبحٍ

وما من خبر
ومن كلِّ جرحٍ
ينزُّ الضَجَرْ
ولا «نُعَم» في البيدِ
لا غيدَ في الغيدِ
يا ليتَ قلبي اعتَذَرْ
ويا ليتَ قلبي عَذَرْ
ويا ليتَ..
صحراءُ!
يا ليتَ موتي رسولي
ويا ليتَ بعثي الخَبَرْ
يعودُ، على الأين، منكِ إليكِ
وأقسمُ صحراءُ
أقسمُ بالعرب البائدة
رمادي جناحي
وناري عنقاؤكِ العائده!

توسَّمتُ في مطر الليل خيراً

ومنّيتُ مغتربيَّ القدامى
بعشبٍ جديدٍ
يُطلُّ مع الفجرِ
منّيتُ نفسي
بأن يُصبح الحلمُ شيئاً مُتاحاً
ولا بأس صحراءُ
لا بأس أني حملتُ الرضا باقةً
(إن ورد التفاؤل معضلةٌ،
لا أكابرْ!)
وزرتُ السجون
وزرتُ المقابرْ
بباقة حُلمٍ
ولا بأسَ صحراءُ
أن أصبَحَ الحلمُ
شيئاً متاحاً..
وأقسمُ بالعرب البائده
جناحي رمادي
وناري

عنقاؤكِ الخالده!

هدوءاً
سيكتمل البدرُ عمّا قريبٍ
وعمّا قريبٍ
تحومُ طيورُ المساءِ على ذُلِّ أعشاشها
إن جُحر الأفاعي مخيفٌ
وجُحر الأفاعي قريبٌ
وعمّا قريبٍ
يحطُّ المساءُ على أسطح الزنكِ
يأوي المخيَّمُ
تعبانَ جوعانَ
يأوي إلى خندقٍ
حفرتْه القذائف في الشارع العامِّ
رائحةُ الموتِ ضوءُ الليالي
وكابوسُ عزّ النهار
يموتُ اليتامى
على جثث الأهلِ

يا زمنَ الوصلِ
في أرض كنعانَ
يمضي المخيَّم تعبانَ جوعانَ
يمضي المخيَّمُ صوبَ المخيَّمْ
ويمضي المخيَّمُ صوبَ المخيَّمْ
والله أعلمْ..

مَن القادمون على الأُفقِ
في هدأةِ الشرقَ؟
أيتها الجلبةُ المعدنيَّه
مضاربُ أهليَ نامت على حزنها
حزنُها واحةٌ
تستريح لديها القوافلُ
تشربُ دمعاً قُراحاً
وتشكرُ نار الكرام
وتمضي
إلى كلِّ أُفقٍ
وفي كلِّ أرضٍ

ويا أيها القادمون على كنفِ النسرِ
هل يفتدى العُسرُ في الأسرِ
بالعُسرِ في الأسرِ
مالت أمام زفيركم المرِّ نخلتُنا
نخلةُ الربِّ
مئذنةُ الحبِّ
يا أيها القادمون
ســلاماً
ســلاماً
أما مِن سلام؟
ألم يبقَ في روحكم غير نسر الجريمه
ولعنة أسلافكم في العصور القديمه
تصلّي لرب الجنود
وتقصفُ برج الحمام؟

وجوهٌ،
صفائحُ تقلبها الريح
أرصفةٌ

لقَّنتها القذائف درساً
مدارسُ
منهاجها الموتُ
لا وقتَ يا وقتُ
هل يهدأ القنصُ والقصفُ
هل ينضج الخوفُ
هل تبدأ الحصَّةُ القادمه
وهل تُمطر الغيمة القاتمه؟

على وقع مطرقةٍ
ينبض القلبُ
مطرقةٌ بين صدغيَّ
آتيكِ مستسلماً بين حين وحين
أزور صغاركِ في قبرهم
وأومن بالله،
حزناً عليهم
وأكفرُ بالله،
خوفاً عليهم

وأسأل أسلافي الملحدين
وأحفاد أبنائي المؤمنين
أهذا كتابُ العداله؟
كرتُ الإعاشةِ؟
زيتٌ؟
قميصٌ!
طحين!
أهذا كتاب العداله
وهذا ختامُ الرساله؟

يدٌ تستريحُ على صخرةٍ
في خواء الضمائر
صحراءُ
هذي يدي
هل ترين دمي جارياً في العروقِ؟
وهل تسمعين رعود انفجاري المدمِّر
هل تبصرين هياكل قتلاي
واقفةً في اندلاع البروق!

وهل تسمعين صراخي
أُحبك!
لا بأس إن أنتِ كابرتِ
حوصرتِ
حاصرتِ
لا بأس إن أنتِ قامرتِ
أُدركُ أن العواصمَ
مائدةٌ للقمار
وأُدركُ
أن الغرام القديم
بنفسجةٌ من غبار
وأُدركُ
أن الغرام القديم
يكابدُ محنته في الحصار
وأعلمُ
أن التتار الغزاةُ
وأومن أن الضحايا التتار
وأومن أني أغيبُ لأحضُرْ

وأنسى لأذكُرْ
وأومن أني أموتُ لأُبعثَ
صحراءُ
آتيكِ باسمي
وأُشهرُ فيكِ
تعاليم روحي وجسمي
فلا تنكريني
أُحبكِ
لكن هدوءاً
هدوءاً
ولا تقتليني!

موائدهم أُثقلتْ بالفواكه والخمرِ
والسِّحر
والعُهر
عمّا قريبٍ تفيضُ كؤوس النميمه
وعمّا قريبٍ ترنّ كؤوس الهزيمه
(كؤوس من الفضّة الخالصة)

وعمّا قريبٍ
يجيء بآنيةِ الوردِ نُذْلٌ رِشاقْ
وتلتفُّ ساقٌ بساقْ
لمؤتمرات الملوكِ وأملاكهم
منطقٌ يستدرُّ اللعاب
ويفتح باباً إلى الشكِّ
بين الكتاب وربِّ الكتاب
تقولين أنتِ: «سلامٌ عليكم»
فتهتفُ عاصمةٌ تلو أُخرى
«شلومٌ علايخ!»
وكل العواصمِ نُذْلٌ رشاق!

وعمّا قريبٍ
يجيئون بالنعشِ
تنهمرُ الكاميرات على موتكِ البضِّ
سجّتْهُ
أيدي ذويكِ الغطاريف
يهرع جند الكلام

الخصام

الوئام

القتال

السلام

النضال

الجدال

الصليب

الهلال

السمُوّ

الجلال

السجون

الحبال

السيوف

الدفوف

اليهود

العرب

وما هبَّ هبّ

وما دبَّ دبّ

ويمضون بالنعشِ
فلساً بفلسِ
وقرشاً بقرشِ
وأبكي وأبكي
ويكتملُ البدرُ
يدنو رهيباً بطيئاً
وأصرخُ رُعبا
وأُمسخُ ذئبا
هدوءاً..

يهيمُ على وجهه الوردُ
بين الزفاف
وبين الجنازه
وأنتِ حديقة عمري
ولا وردَ عندكِ
يختلط الأمرُ في الجوعِ
بين القرنفلِ والخبزِ
خيطٌ ضئيلٌ من الضوءِ

بين دموع التشرُّد والخمرِ
خيطٌ ضئيلٌ من الظلِّ
بين التشرُّد والجوعِ
نُشعل أحزاننا نخلتين
وتنصدعُ الأرض من حولنا
جثتين
ولا «كيفَ» «منذا» «لماذا» و «أين»..

دعي قمر الشهوة البدويّ
وحيداً طليقاً
دعي خيله البيضَ
جامحةً في الرمالِ السحيقةِ
خلّي أغانيه
لاذعةً بالخماسين
لا تلمسي وَتَر الصمتِ
صحراءُ
يا أجمل الإنسِ والجنِّ
هذا أوان الوحام

وهذا زمان انفلات الزمام
أُناشدك الشمسَ
والقدسَ
صحراءُ
جسمي خليَّةُ نحلٍ
دعيه يُعسِّلْ عذاباً بجسمك
أتيتُكِ باسمي
أتأتينَ باسمِك؟

هِلالُ دمي حليةٌ بين عينيكِ
وشمُ ذراعكِ
سرّي المعتّقُ في قبو حطينَ
باعوكِ
باعوكِ
باعوا فلسطينَ
قايضتُ دمعَ الجوى والجواري
بصَلْيةِ نارِ
وبُحتُ بسرِّ النهارِ

سلاماً لعينيكِ

طوبى لكفَّيكِ

من كفني

تنشران على خندقي رايةً

وفي بحر تغريبتي

تنشران الشراعا

وطوبى لكفَّيَّ

من عظمِ قتلايَ

أخلقُ لي زورقاً

فيه زوجٌ ـ كما شئتِ ـ من كل جنسٍ

ونصعد مدَّ الدماء

ونصعدُ

حتى يعود الغرابُ

بقصفةِ زيتونةٍ من بلادي

سلاماً لحبكِ

حُبُّكِ زادُ المعادِ

فمٌ فاغرٌ

قالَ شيئاً أخيراً
تذكَّر شخصاً أثيراً
وأودع أسرارهُ في الترابِ
يدٌ تحت أنقاض ما شيَّدتهُ
وعينٌ تعاتبُ آخرَ ما شاهدتْهُ
أشهدي جسدي
قطعةً.. قطعةً..
في مهبٍّ السوافي
على قشرةِ الأرض
(عفو البراكين)
صاولتُ
جاولتُ
أبليتُ خير البلاءْ
وأبليتُ شرَّ البلاءْ
وليس سوى كربلاءْ
تنازعُ بي كربلاءْ..

دمي لا يجفُّ

اشربي
ثورتي لا تكفُّ
اضربي
أنذا فارس الحبّ والموتِ
صحراءُ
أعطي النخيلِ مداهُ السماويَّ
حسبُ الجذورْ
مدىً في قرابين يوم النشورْ.

ملائكةٌ
يشربون على شرفة الله قهوتهم
طائراتٌ تُغير
على «ميتم العودةِ»
استبشري
بما يُضمِر الغيبُ
لا تؤمني
ولا تكفري.
ملائكةٌ يشربون

زبانيةٌ يشربون

قروناً وراءَ قرونٍ وراء قرون

ولا ترتوين

ولا يرتوون.

دمي لا يجفُّ.. اشربوا

ثورتي لا تكفُّ.. اضربوا

قلائدُ رُمانةٍ (سيكون اسمها المجزره)

معلَّقةٌ بعروقِ شهيدٍ

على القنطره

وبنتٌ تغنيّ

لبئرٍ تجفُّ

وتحلمُ بالرايةِ الممطره

وفي البئرِ

جثّةُ طفلٍ ينادي

وما من لغاتٍ

وما من بلادِ

ألا ليتَ زنديَّ حبلانِ

يا ليتَ عينيَّ جحرانِ

لا ما أراهُ
ولا مَن يراني..
ويا بنتُ غنّي
على بئر حزني
أحبكِ
غنّي
وغنّي
وغنّي..

متى يرجعون؟
على البرِّ، لا بأسَ
في البحرِ، لا بأسَ
أبلتْ مقاعدهم في دواوين يافا
ملوحة بحر المناديل والدمع
والأغنيات القديمةِ
أبلتْ ملامحهم
شفرةُ الحزن والريح
هل يرجعونْ؟

متى يرجعونْ؟
كهولاً على الوجدِ
صُفراً عُراةً
رماداً من الرعب
والجوعِ والعارِ
لا بأسَ
عشبُ السطوح انتهى
والسطوحُ انتهتْ
أزلٌ من ضجيجٍ
يراوحُ في أبدٍ من سكونْ
وتخفي حجارةُ طاحونة الماء
أسرارَها
كلَّما زارَها
سائحٌ، حدجتهُ احتقارا
وأنَّتْ دواليبُها المرهقه:
متى يرجعون من المحرقه
متى يرجعونْ
الى حضن زيتونة الذكريات

ألا نورَ في كل هذي الشرايين
يختصرُ العتمةَ المطبقة؟

تلاشى دخان المعاركِ فجراً
وما من أذانٍ مع الفجرِ
يا أيها الميِّتونَ
أنهضوا صُدفةً للصلاة
مؤذنكم ماتَ نُسكاً وقنصاً
مع الفجرِ شاهدتُ جُثَّتَهُ
عند باب المخيَّمْ
طرحتُ السلامَ على ما تناثر من جسمهِ
قامَ، صلّى، وسلَّمْ
وسدَّدَ عينيهِ للمئذنه
وعادَ وأغفى
على دمه المتخثِّر باللعنة المزمنه
وعادَ وأغفى
دعوهُ يؤذِّنْ بصمتٍ
لعكا وحيفا

هدوءاً.. هدوءاً..

وشاحٌ من الأرجوان
يرفرفُ في نسمةِ البحرِ
يا أيها البحرُ
خفناكَ دوما
وجُبنا أعاليكَ يوماً فيوما
وخفناكَ دوما
يواقيتُك السودُ
يا أيها البحرُ
عقدٌ على صدرِ هاجَرْ
ويا أيها البحر
ها نحن أيتام هاجَرْ
نناديك
رفقاً بأيتامنا
فكم من فتىً يعربيٍّ
بكى يوم ماتت
على شطِّ يافا وعكا وبيروت

جاريةُ الربِّ هاجَرْ
وكم من فتىً يعربيٍّ
بكى يوم ماتتْ
وسافَرْ
ألا أيها البحرُ
رفقاً بنا
ورفقاً بأحبابنا!

يدُ البحر ممدودٌ بالسلامْ
خذي يدهُ
واغفري كلَّ ما كان
صحراءُ
لا ترمقيني بعين الرضا
ولا تحدجيني بعين الخصامْ
تباطأ موكبُ تغربتي
بين بُرجٍ وبُرجٍ
وخادَعني أمسِ واليومَ
عرّافُكِ الوغدُ.

آتي غداً
بحليبِ النسورِ
ودمعِ اليمامْ
وأوقدُ ناري
وأُطعم جاري
فلا تقتليني
ولا تهجريني
جريحاً غريبَ الديارِ.

شبابيكُك السبعةُ الموصده
يزلزلها القصفُ
يفتحها العسفُ
هل أنتِ حالمةٌ بدوارِ عبيرك؟
سكرى برائحة الدمِ والنار؟
ميِّتةٌ في سريرك؟
يا وردةَ القلبِ
هل أنتِ جاريةُ الربِّ
يرزقها ولداً أزرقَ الوجنتين

ويطردها مرَّةً ثانيه

ويُنصفُ قاتلها مرتين؟

أطلّي

أطلّي من الشرفةِ الداميه

وألقي الضفيرةَ

أصعد اليكِ

أشتهيتُكِ موعودةً واعده

أطلّي

ولو مرَّةً واحده

أطلّي

ولوجثّةً هامده

أطلّي!

سلامٌ عليكِ

سلامٌ على ناركِ الأبديّةِ

ماذا تبقّى لديكِ

سوى نخلةِ العنفوان

وخنجركِ الذهبيّ

المخبَّأ في غابة السنديان؟
سلامٌ عليكِ
على حجرٍ غامضٍ واضحٍ
في طريقِ الغُزاة
على وردةٍ طالما قصفتها المدافع
وظلَّتْ تدافع
سلامٌ على طفلةٍ عند بئرٍ
تردّد باكيةً آخر الأُغنيات
وتُنشدُ ضاحكةً أوَّل الأُغنيات
سلامٌ عليكِ
على كلِّ ومضةِ وجدٍ
تزلزلُ قلبَ الوجود
سلامٌ على نطفةِ الكائنات
وروحِ الحياة
سلامٌ عليكِ..

سنابلُ ملحٍ
حصادُ حقولِ الندامةِ

منذا يقيل القوافلَ

من ظمأٍ فادحٍ

أَلسرابُ سرابٌ

(ألا شيءَ غير السرابِ؟)

مُناخ الحنين عذابٌ

(ألي كلُّ هذا العذابِ؟)

أنا العيسُ والبيدُ

مائي على الظَّهرِ

والنصلُ في النحرِ

صحراءُ

منذا مُقيلي

ومنذا يبلُّ غليلي

ويسند ظهري

إلى رحمةٍ آن أن تُرتجى

في جذوعِ النخيلِ؟

سنابلُ ملحٍ

جناحٌ من النار

يخفقُ في عتمةِ القلبِ
(لا تندمي!)
قمرٌ رائعٌ لا مُبالٍ
وأنتِ ببالي
زهور الرصاص ارتوت من دمي
وأنتِ ببالي
أدومُ وأسلمُ
لو مسَّني لفحُكِ المُشتهى في الخيالِ
فدومي إذن واسلمي
ندمتُ قليلاً على مصرعي
وها أنا أُبعثُ حيّاً مُضيئاً
فلا تُعتمي
ولا تندمي..

على جبهتي هالةُ الشوكِ
آمنتُ في الشكِّ
وحَّدْتُ
أشركتُ

قاومتُ

هاجمتُ

ليلايَ تسألُ عن قيسها

ولا قيسَ إلاَّ دمي

سائلاً في ثرى قُدسِها

وأنتِ ببالي

سنابلُ من نعمةٍ دائمه

تموجُ بها غيمةٌ قادمه..

هدوءاً

سيكتملُ البدرُ عمّا قريبٍ

سيدنو رهيباً بطيئاً

سأصرخُ رعبا

وأُمسخُ ذئبا

هدوءاً..

. . . . . .

شمالاً تهبُّ المدامع

شرقاً تموتُ الزوابع

غرباً تضيعُ الشواطيءُ
في زبد الذكريات
ولي في الجنوبْ
مطارحُ وجدٍ بعيدٍ قريبْ
ولي في الجنوب
هوىً ليس يبلى
تُخبِّئُهُ في مناديلها
بناتُ المُكلاَّ
ولي في الجنوبْ
صهيلُ خيولٍ
وصيحاتُ قتلى:
ألا أيها الموتُ
أهلاً وسهلا
لأنك عمرٌ جديدٌ
وخبزٌ وشِعرٌ ودفلى!

أيذكُرني؟
نحنُ سرنا معاً من قرون

وكنتُ أُغالبُ حزني
وكان يغنّي
ويسخرُ منّي
لأني
بكيتُ طويلاً على حسرة اللاجئين
وظلَّ يغنّي
وظلَّ رفيقي حزيناً حزين..
أيذكُرني؟
نحن سرنا معاً
عقرنا على الدربِ ناقتنا البائسه
وهمنا غريقين
همنا معاً
ولم نبلغ اليابسه
وصلّى رفيقي
صلاةَ الغريقِ
وما من مجيبٍ
وما من جوابْ
سوى قهقهاتِ إلٰه السَّرابْ!

وظلَّ يغنّي
على بئر حزني
وأنتِ الصدى في المدى
وأنتِ المدى في الصدى
وأنتِ البزوغُ
وأنتِ الغيابْ
وكلُّ قدومٍ إليكِ. رحيلٌ
وكلُّ رحيلٍ إليكِ إيابْ..

يميلُ النخيلُ قليلاً
وبعد قليلٍ،
تنامُ على قبر من أيقظوها الرياح.
وقبلَ قليلٍ
يميلُ القتيلُ على سرِّه المستباح
رصاصةُ قاتله استأنستْ بالخلايا الألفيةِ
لم تعتذرْ
ولم تنتظرْ
فهل يكتفي بابتسامته الساخره؟

قُبيل السقوط على عتْبةِ الآخره؟
وهل تكتفين بمرثيّة
نصفُها للقتيلْ
ونصفٌ لدرب الحياةِ الطويلْ؟
أُناديكِ صحراءُ
لا تخذليني
ولا تورثي الشكَّ بؤسَ اليقينِ!
أُناديكِ
فليفتح السرُّ أبوابه السبعةَ
اكتملَ البدرُ
صحراءُ
وليُسبغ البرقُ والرعدُ نعمتَهُ
اجتاحت اللوعةُ اللوعةَ
اشتقتُ واللهِ
واشتقتُ واللات
لا تخذليني
جنوني تُباركُهُ
حكمتي

فلا تنقُضي حكمتي بالجنونِ
ولا تقتليني!

لأنكِ طيبةُ القلب
صارتْ يدي واحةً للشعوبْ
لأنكِ نارٌ مُدَلَّهةٌ بالصقيعِ
اصطفتكِ التوابلُ
وانهمرت في الجهاتِ الطيوبْ
لأنكِ كاملةٌ
كشفَ النقصُ أوراقَه واستراح
لأنكِ فصلُ الفصولِ
وأصلُ الأُصولِ
أغاث الصباحُ المساءَ
وأحيا المساءُ الصباح
وشابَهَكِ البحرُ شيئاً فشيئاً
وشابَهَ تكوينك الليلُ
والخيلُ
والسِّحرُ

والشِّعرُ
صحراءُ!
في ذرَّةِ الرملِ حوّاءُ أُخرى
وآدمُ يورثُ أضلاعهُ آدماً
أنتِ ضلعي
امتشقتُكِ مُعجزةً
صحتُ: «كوني!» فكنتِ
وآخيتُ لحمي ورملكِ
أمْ أنني محضُ «أنتِ»!
سألتُ!
اسمعي وأجيبي
لمن قوة الحُلمِ ؟
والنارِ والدمِّ؟
صحراءُ
هل أنتِ أبراجُ نفطٍ
تفيضُ على ضفةِ البربريّه؟
وهل أنتِ أفواجُ لَغْطٍ
تطوفُ بكعبةِ أسلافنا الطالحين

وأسلافنا الصالحين
وترسف في لعنةِ الأشعبيّه؟
أُحبكِ
أومن بالضادِ
روحاً تألقَ في الأبجديّه
ونزَّلَ آياته البيِّنات
ليُبدع جنّاته الدنيويّه
أُحبكِ، صحراءُ
هذا دمي يستعيد المواجعْ
ويغرزُ راياته في المواقعِ
تلوَ المواقعْ
وهذا أنا
نخلةٌ تستردُّ اسمها
من لغاتِ التهجُّنِ والرقِّ
توقظُ صوتاً تكلَّسَ في غفوةِ الشرقِ
صحراءُ
قومي نحارب!

«رأيتُ المنايـا...»
وما كان أعشىً سوايا!

لصوصٌ وراءَ لصوصٍ
يجيئون بالأدمع السينمائيةِ
اختصري الوقت
صحراءُ
هذي أكاليلُ وردهم الاصطناعيّ
فوق قبورِ بنيكِ
انظري!
تلك أفعى الأكاذيب
بين الزهور
انظري!
هل ترين العقاربْ!
هنا عربٌ
وهناك اليهود
هنا إخوةٌ
وهناكَ الأجانبْ؟

عقارب تلو العقاربْ
كفي خدراً بنبيذِ الأغاني
وسُمِّ الأماني
كفانا انتحاراً بسوءِ الطوالعِ
بين البروجِ وبينَ الكواكبْ
كفي.. وانهضي
اختلط المهدُ باللحدِ
صحراءُ
قومي نُحاربْ!

«بلالٌ» من الدمِّ والنورِ
قامَ يؤذنُ في قمة الموتِ
مَن داهَمَ الصوت بالصوتِ؟
مَن أشعلَ النارَ في سدرةِ المنتهى
فزلزلت الأرض زلزالها؟
خذي بيدي الآن
صحراءُ
زمّلتِني أنت

آمنتِ بي
يومَ مسَّتْ يدُ الله قلبي
بنارِ النبوءاتِ
هدهدتِني
يومَ صُكّتْ عظامي بحُمّى التواصُلِ
صحراءُ
قومي نَلُمّ أوائلَ من آمنوا
فجرُ هجرتنا لاهبٌ
دربُ عودتنا لاحِبٌ
بدرُنا طالعٌ لا محالةَ
أنصارنا في المدينةِ كُثْرٌ
وكُثْرٌ وكُثْرٌ
وهذي رسالتنا:
الأولى آمنوا كفروا
والأولى كفروا خرجوا
والأولى خرجوا أحرجوا
والأولى أحرجوا أفرجوا
والأولى أفرجوا أنضجوا

والأولى أنضجوا
أكلوا تَمْرَ آلهةِ العُسرِ
صحراءُ
هذي رسالتنا الثانيه
وهذا رسولٌ جديدٌ
يحطِّم أصنامكِ العاتيه
وهذا بلالٌ جديدٌ
يؤذن من قمة الهاويه..
وهذا كتابكِ
قومي نحارب..
وهذا كتابكِ
صحراءُ
صحراءُ
صحراااااا

المحتويات

* ارم ٩
تبيين ٩
نشيد الافتتاح ١١
نشيد الدهور ١٣
نشيد الكهنة ١٧
نشيد الانبياء ٢٢
نشيد الحرب ٢٨
نشيد الانسان الجديد ٣١
نشيد الختام ٤٤
* أسكندرون ـ في رحلة العمر ورحلة الداخل يرحل بزوجته..
باحثاً عنها ٤٧
(١) ٤٨
(٢) ٤٩
(٣) ٥٤
(٤) ٥٥
(٥) ٥٨
(٦) ٦١
(٧) ٦٢
* رحلة السراديب الوحشية ٦٦
(١) ٦٦
(٢) ٦٧
(٣) ٦٨
(٤) ٧٠
(٥) ٧٣
(٦) ٧٥
(٧) ٨٠
* مراثي سميح القاسم ٨٣
(ب) ٨٣
(ن) ٨٥
(أ) ٨٨
(د) ٩٠
(ي) ٩٢
* الهي الهي، لماذا قتلتني؟ ١١١
* ثالث اكسيد الكربون ١٦٦
تعريف بثالث اكسيد الكربون ١٦٧
سيرة بريطافور ١٦٨
سيرة بنيون ١٨١
سيرة جليات ١٩١
* الصحراء ٢٠٦

■ دار سعاد الصباح

للنشر والتوزيع

هي مؤسسة ثقافية عربية مسجلة بدولة الكويت وجمهورية مصر العربية وتهدف إلى نشر ما هو جدير بالنشر من روائع التراث العربي والثقافة العربية المعاصرة والتجارب الابداعية للشباب العربي من المحيط إلى الخليج وكذا ترجمة ونشر روائع الثقافات الأخرى حتى تكون في متناول أبناء الأمة فهذه الدار هي حلقة وصل بين التراث والمعاصرة وبين كبار المبدعين وشبابهم وهي نافذة للعرب على العالم ونافذة للعالم على الأمة العربية وتلتزم الدار فيما تنشره بمعايير تضعها هيئة مستقلة من كبار المفكرين العرب في مجالات الإبداع المختلفة .

هيئة المستشارين :

أ. إبراهيم فريح (مدير التحرير)
د. جابر عصفور
أ. جمال الغيطاني
د. حسن الابراهيم
أ. حلمى التونى (المستشار الفنى)
د. خلدون النقيب
د. سعد الدين إبراهيم (العضو المنتدب)
د. سمير سرحان
د. عدنان شهاب الدين
د. محمد نور فرحات (المستشار القانونى)
أ. يوسف القعيد

مطابع

ت ٩٣٢٧٠٦